

4 me Année, No. 181

Lundi - 21 - 12 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة
ـــص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٨١ « القـاهرة فى يوم الاثنين ٧ شوال سنة ١٣٥٥ — ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

اللســـان المرقَّع ... (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

وقال صاحب سر (م) باشا: جاء «حضرة صاحب السعادة» فلان لزيارة الباشا؛ وهو رجل مصرىٌّ وُلد فى بعض القُرى، ما نعلم أن الله تعالى ميزه بجوهر غير الجوهر، ولا طبع غير الطبع، ولا تركيب غير التركيب، ولا زاد فى دمه نقطة زهو، ولا وضعه موضع الوسط بين فَنَّين من الخليقة. غير أنه زار فرنسا، وطاف بانجلترا، وساح فى إيطاليا، وعاج على ألمانيا، ولوَّن نفسه ألواناً، فهو مصرىٌّ ملوَّن. ومن ثم كان لا يرى فى بلاده وقومه إلا الفروق بين ما هنا وبين ما هناك، فما يظهر له دين قومه إلا مقابلاً لشهوات أحبها وغاص فيها، ولا لغة قومه إلا مقرونة بلغة أخرى ودَّ لو كان من أهلها، ولا تاريخُ قومه إلا مغمى عليه ... كالميت بين تواريخ الأمم

هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعَّمين: مصرى المال فقط، إذ كانت أسبابهم ومستَغَلاتهم فى مصر؛ عربىُّ الاسم لاغير،

(١) أذكرتنى مقالة الأستاذ الزيات (استقلال اللغة) بحديث من أحاديث صاحب سر (م) باشا كنت أرجأت نشره الى حين فها هو هذا

إذ كانت أسماؤهم من جناية أهليهم بالطبيعة ؛ مُسَلّمٌ ما مضى دون ما هو حاضر ، إذ كان لا حيلة فى أنسابهم التى انحدروا منها

هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعّمين المفتونين بالمدنية ، لكل منهم جنسه المصرىّ ولفكره جنس آخر

قال : وكان حضرة صاحب السعادة يكلم الباشا بالعربية التى تلمها العربية ، مرتفعاً بها عن لغة الفصيح ارتفاعاً منحطاً . . . نازلاً بها عن لغة السُّوقة نزولاً عالياً ... فكان يرتضخ لكنة أعجمية بينا هى فى بعض الألفاظ جرسٌ عالٍ يطن ، إذا هى فى لفظ آخر صوت مريض يئنّ ، إذا هى فى كلمة ثالثة نغم موسيقى يرن . ورأيتُه يتكلف نسيان بعض الجمل العربيـة ليلوى لسانه بغيرها من الفرنسية ، لا تظرُّفاً ولا تملحاً ولا إظهاراً لقـدرة أو علم ، ولكن استجابة للشعور الأجنبى الخفى المتمكن فى نفسه . فكانت وطنية عقله تأبى إلا أن تكذِّب وطنيـة لسانه ، وهو باحداها زائفٌ على قومه ، وبالأخرى زائف على غير قومه

***

فلما انصرف الرجل قال الباشا : أفٍّ لهذا وأمثال هـذا ! أفٍ لهم ولما يصنعون ! إن هـذا الكبير يلقبونه « حضرة صاحب السعادة » ، ولأشرفُ منـه والله رجلٌ قَروىٌّ ساذج يكون لقبه « حضرة صاحب الجاموسة » . . . . نعم إن الفلاح عندنا جاهلُ علم ، ولكن هذا أقبح منه جهلاً فانه جاهلُ وطنية

ثم إن الجاموسة وصاحبها عاملان دائبان مخلصان للوطن ؛ فما هو عمل حضرة (صاحب اللسان المرقّع) هذا ؟ إن عمله أن يعلن بِرطانته الأجنبية أن لغة وطنه ذليلة مَهينة ، وأنه مُتجرد من الروح السياسى للغة قومه إذ لا يظهر الروح السياسى للغةٍ ما إلا فى الحرص عليها وتقديمها على سواها

كان الواجبُ على مثل هـذا ألا يتكلم فى بلاده إلا بلغته ، وكان الذى هو أوجبُ أن يتعصب لها على كل لغة تزاحمها فى أرضها ، فترك هـذا وهذا وكان هو المزاحم بنفسه ؛ فهو على أنه « حضرة صاحب سعادة » لا يُنزل نفسه من اللغة القومية إلا منزلة خادم أجنبى فى حانة

أتدرى ما هو سر هؤلاء الكبراء وهؤلاء السَّراة الذين يطمطمون إذا تكلموا فيما بينهم ؟ إنهم عندنا طبقات :

أما واحدة فأنهم يصنعون هـذا الصنيع منجذبين الى أصل راسخ فى طباعهم مما تركه الظلم والاستبداد والحمق فى زمن الحكم التركى . فهم يُبدون جوهرَ نفوسهم لأعينهم وأعين الناس ، كأن اللغـة الأجنبية فيما بينهم علامة الحكم والسلطة واحتقار الشعب واستمرار ذلك الحمق فى الدم . . . . وهم بها يتنبَّلون

وأما طبقة فانهم يتكلفون هـذا مما فى نفوسهم من طباع أحدثها النفاقُ والخضوع والذلُّ السياسى فى عهـد الاحتلال الانجليزى ؛ فاللغة الأجنبية بينهم تشريف واعتبار ، كأنهم بها من غير الشعب المحكوم الذى فقد السلطة وهم بها يتمجدون

وأما جماعة فأنهم يتعمدون هذا يريدون به عيب اللغة العربية وتهجينها إذ اتخذوا من عداوة هذه اللغـة طريقة انتحلوها ومذهباً انتسبوا إليه ؛ وفيهم العالم بعلوم أوربا والأديب بأدب أوربا ؛ وذلك من عداوتهم للدين الاسلامى إذ جعل هذه اللغةَ حكومةً باقيةً فى بلادهم مع كل حكومة وفوق كل حكومة ؛ وهم يزدرون هذا الدين ويُسقطون عن أنفسهم كلَّ واجباته . وهؤلاء قد خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً إذ يغلون فى مصريتهم غلواً قبيحاً ينتهى بهم إلى سفه الآراء وخفـة الأحلام وطيش النزعات فيما يتصل بالدين الاسلامى وآدابه ولغتـه . وما أرى الواحد منهم إلا قد غطى وِصفُه من حيث هو رقيعٌ ، على وصفه من حيث هو عالم أو أديب أو ما شاء . إن هذا لمقتٌ (كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا)

ومن أثر تلك الفئات الثلاث نشأت فئةٌ رابعة تحوَّل فيهم ذلك الخلط من الكلام إلى طريقة نفسية فى النفس ، فهم يُقحمون فى كتابتهم وحديثهم الكلمات الأجنبية ويحسبون عملهم هذا تظرفاً ومعابثةً ومجوناً ، على أنه هو الذى يُظهِرُ لعين البصير مواضع القطع التاريخى فى نفوسهم ، وأماكن الفساد القومى فى طبيعتهم ، وجهاتِ التحلل الدينى فى اعتقادهم . هؤلاء يكتب أحدهم (النرفزة) وهو قادر أن يقول الغضب ، (والفلير) وهو مستطيع أن يجعل فى مكانها المغازلة ، (وسكانس) وهو يعرف لفظة أنواع وألوان ، وهكذا وهكذا وهكذا : ولا والله أن تكون المسافةُ بين اللفظين إلا المسافة بعينها بين قلوبهم ورشد قلوبهم

طور جديد
فى تاريخ أوربا السياسى
بقلم باحث دبلوماسى كبير

تجوز أوربا اليوم مرحلة فاصلة فى تاريخها القومى والسياسى . وقد ظهرت الأعراض الأولى لهذه المرحلة الجديدة فى التاريخ الأوربى عقب الحرب الكبرى ، إذ قامت عصبة الأمم لتحقق أمنية عالية ، ولتؤيد مبادئ السلام والتفاهم بين الأمم ، ولتحاول القضاء على الحرب كأداة للسياسة القومية ؛ وقد كان قيام العصبة وما تحمل من مبادئ ومثل جديدة فى السياسة الدولية ، وفى علائق الأمم ظاهرة جديدة فى تاريخ أوربا السياسى ؛ فقد كانت أوربا حتى الحرب الكبرى تمثل من الناحية العامة كتلة معنوية موحدة ، وكانت تأخذ بزعامة العالم القديم ، وتحاول دائماً أن تفرض عليه حضارتها وسلطانها السياسى ؛ وكانت أوربا تحتفظ باستقلالها المعنوى وسيادتها القديمة بين الشرق القديم وأممه من ناحية وبين العالم الجديد (أمريكا) وأممه من ناحية أخرى ؛ ولكن الحرب الكبرى أسفرت عن ظاهرة جديدة هى تراجع أوربا عن دعواها القديمة فى الاستئثار بزعامة العالم القديم ، وإفساحها المجال لزعامة أمة عظيمة ناهضة هى اليابان التى استطاعت فى الأعوام العشرة الأخيرة أن تقوض أسس النفوذ الأوربى فى الشرق الأقصى ، وشهدت أوربا لأول مرة تدخل العالم الجديد فى شؤونها الحيوية ؛ وقامت عصبة الأمم لتجمع أمم الشرق وكثيراً من أمم العالم الجديد مع أوربا فى صعيد واحد ؛ وبذلك نزلت أوربا أمام تطور الظروف والحوادث العالمية عن زعامتها القديمة واستئثارها القديم بالقيادة السياسية والمعنوية فى شؤون العالم

وهذا التطور فى موقف أوربا يرجع الى الثغرة العميقة التى أحدثتها الحرب الكبرى فى القومية الأوربية ؛ فقد خرجت أوربا من الحرب محطمة ناضبة الموارد ، وانقسمت إلى معسكرين كبيرين هما معسكر الغالبين ومعسكر المغلوبين ؛ واستأثر الفريق الظافر مدى حين بالزعامة فى توجيه الشؤون ، فأملى على المغلوب شروطه المرهقة ، وعمل على تمزيق الوحدات السياسية القديمة ، وإحياء قوميات ناشئة ليحقق بقيامها أغراضاً عسكرية وسياسية ؛ وبذلك مزقت أوربا نفسها ، واضطرمت الأحقاد القومية القديمة أضعاف ما كانت قبل الحرب ؛ وكان اضطرامها أشد فى الجبهة المغلوبة أو المغبونة ؛ ولم يلبث أن أسفر هذا الاضطرام عن النتيجة المحتومة ، أعنى الانفجار ؛ فقامت الفاشية فى ايطاليا ساخطة على هذه الزعامة وهذا الاستئثار فى استخلاص المغانم والأسلاب وفى توجيه الشؤون ، وأخذت تعمل على إنشاء قومية إيطالية حديثة ، تضطرم بمختلف الأطماع المشروعة وغير المشروعة ، وتسرف فى الحقد ، وفى الوعيد والتحدى ، وتمعن فى انتهاك النظريات والمبادئ القديمة المتعلقة بالحقوق والحريات الشعبية ، وتسخر من دعوة السلام ومن مبادئ العدالة الدولية . وقامت الاشتراكية الوطنية بعد ذلك فى ألمانيا ، وشعارها الانتصاف لألمانيا مما نزل بها من فروض مرهقة ، وتحريرها من الأغلال التى

وما برح التقليد السخيف لا يعرف له باباً يلج منه الى السخفاء إلا باب التهاون والتسامح ؛ ونحن قوم ابتلينا بتزوير العيوب على أنفسنا وعدها فى المحاسن والفضائل ، من قلة ما فينا من الفضائل والمحاسن . وهذه الطبيعة المعكوسة تحاول أن نقتبس من مزايا الأوربيين فلا نأخذ أكثر ما نأخذ إلا عيوبهم إذ كانت هى الأسهل علينا ، وهى الأشكل بطبعنا الضعيف المتسامح المتهاون

ومن هذا تجد مشاكلنا الاجتماعية على أنها أهون وأيسر من مشاكل الأوربيين ، وعلى أن فى ديننا وآدابنا لكل مشكلة حلها — تجدها هى علينا أصعب وأشد لأننا ضعفاء ومتخاذلون ومقلدون ومفتونون ، وكل ذلك من شىء واحد : وهو أن أكثر كبرائنا هم أكبر بلائنا

***

قال صاحب السر : ثم ضحك الباشا ضحكته الساخرة وقال : كيف تصنع أمة يكون أكثر العاملين هم أكبر العاطلين ، إذ يعملون ولكن بروح غير عاملة . . .

(طنطا)

طوق بها الغالب عنقها ، والارتفاع بها الى مكانتها القديمة فى معترك الحرب والسياسة ؛ ولكن الاشتراكية الوطنية ، عملت من ناحية أخرى على إذكاء الأحقاد القومية والجنسية ، بصورة لم يسمع بها ، وقد فاقت الفاشية فى عنف أساليبها ، وفى نزعاتها العسكرية والاعتدائية ، وفى سحق الحقوق والحريات الفردية ، وإنكار الحقوق العامة ، وفى تحدى كل مبادئ العدالة الدولية ، وعادت النظرية الألمانية القديمة « الحق هو القوة » فى أخطر صورها ؛ ولم تشهد أوربا منذ حرب الثلاثين ، والحروب الدينية موجة فى الاحقاد والمنافسات القومية والجنسية أشد من تلك التى تثيرها اليوم الفاشية الايطالية والنازية الألمانية

تلك هى الظاهرة الأولى فى انحلال القومية الأوربية . وأما الظاهرة الثانية فهى معركة المبادئ التى تضطرم اليوم فى أوربا بصورة لم تشهدها منذ الثورة الفرنسية ؛ ولقد بدأت هذه المعركة قبل نهاية الحرب الكبرى ، حينما ظفرت البلشفية بتحطيم دولة القياصرة فى روسيا ، وأقامت مكانها جمهورية شيوعية تمثل سيادة الكتلة العاملة ؛ وكانت المعركة يومئذ واضحة محدودة المدى ؛ فقد كانت البلشفية فى ناحية ، وكانت أوربا كلها فى الناحية الأخرى تناضلها وترد غزوها ؛ بيد أن هذا النضال بين البلشفية والرأسمالية يغدو اليوم فى المحل الثانى بالنسبة لمعركة أشد وأبعد مدى تضطرم بها أرجاء القارة الأوربية ، تلك هى معركة الفاشية والديموقراطية ؛ فالفاشية أو بعبارة أخرى نظم الطغيان المنيف التى تحمل لواءها ايطاليا والمانيا ، تحاول أن تغزو الديموقراطية الأوربية وأن تصرعها ؛ والديموقراطية الأوربية تناضل عن كيانها بكل ما وسعت . وما زال حصن الديموقراطية فى غرب أوروبا : فى فرنسا وانكلترا ؛ بيد أنه يمكن أن يقال أيضا إن روسيا البلشفية تنحاز فى هذا الصراع الى جانب الديموقراطية ؛ وليس أدل على خطورة هذا الصراع ، مما نرى فى الحرب الأهلية الاسبانية من انتظام القوى الفاشستية والقوى الديموقراطية وجهاً لوجه ، واعتماد الأولى على معاونة ايطاليا والمانيا ، واعتماد الثانية على معاونة روسيا وفرنسا ، وظهور الحرب الاسبانية كأنها مظهر الصراع بين هاتين الجهتين الخصيمتين . فهذا الصراع المذهبى الذى يخرج اليوم من طور الجدل والنقاش ، الى طور النضال المادى ، يهز أسس القوميات الأوربية ويهددها بأروع الأخطار التى يمكن تصورها

وهنالك ظاهرة عامة ليست أقل خطورة وأثرا فى تطور تاريخ أوربا السياسى ، تلك هى انهيار المبادئ العامة التى يقوم عليها القانون الدولى ، وانهيار الضمانات القومية والدولية التى كانت تكفل احترامه وتطبيقه . ففى الأعوام الأخيرة رأينا بعض الدول الكبرى ، مثل اليابان وايطاليا وألمانيا ، تعمل على انتهاك المعاهدات والحقوق القومية والدولية بجرأة ترجع بالسياسة الدولية الى فوضى العصور الوسطى ؛ فاليابان تعتدى على منشوريا الصينية وتفتحها بالقوة المسلحة أمام سمع العالم وبصره ، وتتحدى عصبة الأمم ، ثم تغادرها لكى تطلق العنان لمشاريعها الاستعمارية دون أى تدخل أو وازع ، وما زالت تتابع اعتداءها على الأراضى الصينية طبقاً لخطة منظمة ترمى الى بسط حمايتها المسلحة على هذه الامبراطورية الشاسعة ؛ وإيطاليا تحذو حذو اليابان ، فتنظم اعتداءها على الحبشة ، وتجرد أقوى وأحدث وحداتها على الشعب الحبشى الضعيف ، وتمطره وابلاً من القنابل الجوية والغازات الخانقة ، ثم تنتزع منه أرضه قسراً ، وتضمها الى إيطاليا ؛ وذلك على رغم كل العهود والمواثيق الدولية التى قطعتها على نفسها باحترام استقلال الحبشة ووحدتها الجغرافية ، وبرغم ما اتخذته عصبة الأمم فى هذا الظرف من تقرير العقوبات الاقتصادية على إيطاليا ؛ وهاهى ذى الفاشية تباهى اليوم بظفرها ، وتسخر جهاراً من عصبة الأمم ومن كل المعاهدات والمواثيق الدولية ، وهى على أهبة لتمزيق أى ميثاق وأية معاهدة لاتتفق مع أطماعها العسكرية والاستعمارية . وأما ألمانيا الهتلرية ، فقد خصت بضرباتها أعظم دستور دولى وضع لأوربا منذ معاهدة فينا ، ونعنى معاهدة الصلح أو معاهدة فرساى ، فنقضت جميع نصوصها العسكرية التى كانت تقيد حريتها فى التسليح ، والتى تتعلق بتحريم منطقة الرين ، ونقضت أخيراً نصوصها الخاصة بنظام الملاحة الدولية فى بعض الأنهار الألمانية ؛ ونقضت وثيقة دولية هامة أخرى هى ميثاق لوكارنو الذى عقد لتدعيم معاهدة فرساى وتأمين السلام فى الحدود الفرنسية الألمانية ؛ وحطمت ألمانيا بذلك آخر القيود العسكرية والسياسية التى فرضت عليها فى

معاهدة الصلح . ومهما قيل فى تبرير هذا النكث من جانب ألمانيا وكونها حملت عليه مضطرة لتقضى بذلك على الأغلال الظالمة التى فرضتها عليها معاهدة الصلح ، والانتصاف لسياستها القومية ، وكرامتها كدولة عظمى ، فانها بلا ريب قد عملت أكثر من أى دولة أخرى لتمزيق العهود والمواثيق الدولية ، ولتقويض أسس الثقة بين الأمم وإضعاف هيبة القانون الدولى ؛ ولا ريب أنها قد أعادت للعالم ذكرى اعتدائها على البلجيك فى سنة ١٩١٤ وذكرى نظريتها الشهيرة فى المعاهدات الدولية بأنها « قصاصات ورق » لا يعتد بها

فهذه الظواهر والظروف الخطيرة تهز اليوم أسس الدستور الدولى الذى عاشت القارة الأوربية فى ظله منذ معاهدة فينا ، — أعنى منذ قرن وربع — وتدفع بها إلى طريق جديد لم تتضح طوالعه بعد . بيد أن هنالك ما يدل على أن هذا المصير الذى تتهيأ أوربا لاستقباله سيكون هائلاً مروعا ؛ فالدول العظمى تستعد كلها لخوض أعظم معارك عرفها التاريخ ؛ والدول الصغرى ترتجف كلها فرقاً من المستقبل ، وتحسب لاعتداء القوة المسلحة أعظم حساب ؛ وهى لا تستطيع أن تعتمد على قوة المواثيق والضمانات الدولية كما كانت فى الماضى بعد الذى رأته من عبث بعض الدول العظمى بكل هذه المواثيق والضمانات ، ولكنها تزمع فى جميع الأحوال ألا تسقط دون دفاع : فالبلجيك وهولندة وتشيكوسلوفاكيا والنمسا وسويسرة وغيرها من الدول الصغيرة تجد فى تسليح نفسها بكل ما وسعت ، وبعضها مثل البلجيك وهولندة ينظر بمنتهى الجزع إلى مصير أملاكه الاستعمارية الواسعة ؛ على أن هذه الدول تندمج غالباً فى إحدى الجبهتين الأوربيتين اللتين تستعدان لخوض المعركة القادمة ، ومصيرها يتوقف على مصاير المعركة ذاتها

وقد فقدت أوربا القديمة زعامتها العالمية ، وفقدت حتى زمام سياستها الخاصة ؛ فاليوم نجد دولة أوربية عظمى هى ألمانيا تحالف دولة أسيوية عظمى هى اليابان ضد روسيا وضد الجبهة الأوربية التى تندمج فيها . وهذا تطور خطير فى سياسة أوربا التقليدية التى حرصت دائماً أن تواجه الشرق متحدة ؛ وهذه ظاهرة تعود بنا إلى القرن السادس عشر والسابع عشر حينما كانت فرنسا تستعين بمحالفة الدولة العثمانية على قتال خصومها الأوربيين ولا سيما أسبانيا ؛ وقد استطاعت أوربا أن تقضى على هذه الظاهرة ، وأن تقف طوال القرن التاسع عشر متحدة ضد الدولة العثمانية حتى انتهت بتمزيقها ؛ وفى الحرب الروسية اليابانية كانت أوربا كلها تتوجس شراً من انتصار اليابان ، ولو أن دولا أوربية كانت تتمنى ألا تنتصر روسيا انتصاراً يؤدى إلى تقوية سلطانها فى القارة ؛ ولما انتصرت اليابان ارتاعت أوربا ، وذاعت من ذلك الحين صيحة الخطر الأصفر ، واجتمعت أوربا على مقاومة الاستعمار اليابانى حتى كانت الحرب الكبرى فانضمت اليابان إلى الحلفاء ضد ألمانيا ، واستولت على أسلابها الاستعمارية فى الصين . أما اليوم فان ألمانيا تحالف اليابان ضد أوربا ، وتحدث بذلك ثغرة عميقة فى إجماع أوربا القديم ، وتجمع الشهوات العسكرية والاستعمارية بين الجنس الأصفر الذى اعتبر فيما مضى خطراً على أوربا ، وبين الجنس « الآرى » الذى تزعم ألمانيا الهتلرية أنه أفضل أجناس العالم

وأخيراً نجد العالم الجديد (أمريكا) يتأهب للأخذ بنصيبه فى توجيه سياسة القارة القديمة ؛ وقد دخلت أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء ، وعاونت على ظفرهم فى المعركة الحاسمة ، واشتركت فى شؤون أوربا مدى حين ، ولكنها انسحبت منها حينما تفاقمت الفوضى الدولية فى أوربا ، وعادت إلى سياستها التقليدية من اعتزال الشؤون الأوربية ، بيد أنه يلوح لنا أن التحالف اليابانى الألمانى قد يحملها على العود الى الاشتراك فى السياسة الأوربية مرة أخرى ، والى محالفة الدول الغربية على العمل لصالحها المشتركة فى الشرق الأقصى ، وهذا عامل خطير أيضاً فى إضعاف الطابع الأوربى للسياسة الدولية العامة

والخلاصة أن أوربا فقدت زعامتها السياسية والاجتماعية القديمة ، وأخذت تندمج شيئاً فشيئاً فى الوحدة العالمية الكبرى ؛ وقد فقدت فكرة الحضارة الأوربية ، وخصومة الشرق والغرب ، والتضامن الأوربى فى الشؤون الاستعمارية كثيراً من معانيها وأوضاعها القديمة التى كانت تسبغ على أوربا مكانة الزعامة والوحى والارشاد

(***)

ســـوء تفاهم

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كانت الساعة العاشرة حين خرجت السيارتان إلى الطريق العام — أو صعدتا إليه إذا أردت الدقة فان الأرض هناك، فى لبنان، قلما تكون مستوية — وكنت أقود إحداهما ومعى فيها زوجتى وأبنائى، وفى الثانية أقارب لنا يقضون الصيف فى «ضهور الشوير» وقد مروا بنا فى بكفيا — حيث كنا نقضى الصيف — ليرافقونا إلى «الشاغور» حيث دعينا إلى الغداء عند أسرة صديقة لنا من يافا. وتوكلنا على الله وأخذنا الطريق إلى بيروت وكله من بكفيا انحدار وبعضه أوعر من بعض، ولكنى كنت قد ألفته وزايلنى الخوف من التواءاته وتعاريجه الحادة التى يثب عندها القلب إلى الحلق. وكان اليوم مشرقاً والمناظر على الجانبين مما ترتاح العين إليه وينشرح الصدر له، والطريق أحسن ما يكون نعومة وملاسة وإن كان مما يدير الرأس أحياناً أن يصوب المرء عينه عن الجبل الأخضر من ناحية إلى الوادى العميق من الناحية الأخرى؛ وكان لا بد من العناية والحذر فى السير لشدة الانحدار وكثرة المنعرجات وازدحام الطريق بالصاعدين والنازلين فيه بالسيارات الخفيفة والثقيلة والضخمة والصغيرة، فكان البطء الذى اضطرنا إليه الحذار من أسباب المتعة، فاستطعنا أن نتملى بالمناظر التى حولنا وأن نتحدث كما نشاء ونجنب الصمت الذى تدعو إليه السرعة والذى لا يكون إلا ثقيلاً على المسافرين

واحتجنا أن نتزود من «البنزين» ولم يكن معنا إلا ورق مصرى، فقالت زوجتى وأنا أناول الرجل ورقة مصرية بجنيه وآخذ الباقى: «ماذا أعطاك؟»

ففتحت لها كفى على ما فيه فأخذته وعدّته، ثم سألتنى: «كم أعطوك؟... إنى لا أفهم!»

قلت: «الجنيه المصرى يساوى ٣٩٤ قرشاً سورياً، وقد أخذوا حقهم وأعطونى حقى وهو معك»

فقالت زوجتى والتفتت لأقاربنا «لست أفهم... لقد كان الجنيه يساوى ٣٩٧ قرشاً»

فقلت: «ولكن الفرنك ارتفع وارتفعت تبعاً له العملة السورية»

فقالت مستغربة: «ولكن لماذا أهملت أن تستبدل النقود المصرية قبل أن يهبط»

قلت وأنا أبتسم: «إنه لم يهبط بل ارتفع»

فقالت وهى تخلط: «كيف يكون ارتفع وهو قد هبط.. ألسنا نأخذ أقل»

فقالت قريبتنا: «تمام.. ٣٩٤ أقل من ٣٩٧»

فقلت: «دعينى أشرح لك الأمر.. تصورى أن الفرنكات التى فى الدنيا كلها انقلبت تفاحاً»

فقالت زوجتى: «نعم»

قلت: «وتذهبين إلى السوق وتجدين التفاح كثيراً فتشترين الأقة بخمسة قروش»

قالت: «نعم»

قلت: «وفى أثناء الليل يرتفع التفاح»

فقالت قريبتنا: «كيف يرتفع»

قلت: «يقل.. هه.. يتعفن.. يسرق.. تصيبه آفة... يقل والسلام؛ فاذا ذهبت تشترين أخذت بالقروش الخمسة أقل من أقة»

فقالت قريبتنا: «يعنى أنه يهبط»

قلت: «يصعد»

قالت: «كيف يصعد وهو أقل؟»

فقال زوجها: «اسمى.. أنا أفهمك المسألة... تعرفين مقياس الحرارة»

قالت: «بالطبع.. ماله؟»

قال «لا شىء.. تنظرين إليه يوماً فتجدين أن الرقم الذى يشير إليه ثلاثون؟»

قالت: «نعم»

قال «وفى اليوم الثانى تنظرين إليه فاذا الرقم قد صار ٢٨... ومعنى هذا أنها هبطت»

قالت: «نعم»

قال : « أما الفرنك فان المعنى يكون العكس »

قالت : « نعم »

قال : « هذا كل ما هنالك »

فنظرت اليه كالمذهولة وكنا نحن نضحك ؛ فقالت زوجتى وهى تجرها : اسمى ... إنهم يضحكون منا ويخيل إلى أن أسلم طريقة أن نقول إن الفرنك صعد كلما فهمنا أنه هبط »

واستأنفنا السير وكنا قد ملنا عن طريق بيروت إلى طريق (عاليه) وفرغنا من الانحدار وبدأ الصعود والطريق فى هذا الجبل أوسع وأرحب والتواؤه أقل حدة ، فأطلقنا للسيارتين العنان ، ولم تمنع السرعة زوجتى أن تتكلم فقالت : « إنى أشعر أننا لن نجد زينب » تعنى الصديقة التى دعتنا إلى الغداء . ففزعت وكادت عجلة القيادة تضطرب فى يدى وقلت لها بصوت تشى لهجته بالقلق : « لماذا ؟ »

فلم تجب بل سألتنى : « ماذا قلت لها بالتليفون .. بالضبط ؟ »

قلت : « قلنا كلاما كثيراً .. وألححت عليها أن تجىء لتتغدى معنا فى بكفيا ولكنها أصرت إصراراً شديداً على أن نذهب إلى الشاغور .. وأذكر تماماً وبغاية الوضوح أنها وصفت لى عين الماء التى هناك »

فأشارت إلى بكفها أن اسكت وقالت : « ماذا قلت لها بالضبط . هذا ما أريد أن أعرفه فلا تغرقه فى طوفان من الوصف الذى لا يفيد شيئاً ... وإذا كنت تريد أن تصف الشاغور فانتظر حتى تراه »

قلت : « ماذا قلت بالضبط ..؟ ياله من سؤال .. اتفقنا على اليوم .. وأؤكد لك أنى لم أترك عندها أى شك فيه .. صرخت حتى بح صوتى .. قلته بالعربية .. وقلته بالفرنسية Samedi »

فصاحت زوجتى Samedi ؟

قلت : « بأعلى من هذا الصوت »

قالت : « هل قلت Samedi .. هذا معناه السبت لا الأحد »

فتداركت الخطأ وقلت وأنا مضطرب « لا لا لا لا بل قلت Dimanche »

وجرى ببالى أنى لا أزال أغلط فى أسماء الأيام باللغة الفرنسية ولكنى كافحت هذا الخاطر حتى نفيته وطردته وقلت لها : « وهبينى أخطأت فقد قلت لها بالانجليزية Sunday ولا يمكن أن أغلط فى هذا »

قالت : « سنرى »

فقلت وأنا محنق : « سنرى .. ألا يمكن أن أتكلم بالتليفون من غير أن تتهميني بالتخليط ... هل هذا التليفون معجز ..؟ سبحان الله العظيم ! »

قالت : « طيب اسكت بقى »

* * *

فسكت . ووصلنا الشاغور ودخلنا الفندق وسألنا عن السيدة وزوجها فقيل لنا إنها خرجت معه فى الصباح الباكر وإنهما قالا إنهما سيرجعان بعد المغرب ؛ فنظرت إلىّ زوجتى نظرة ذات معنى ، ولم تكفها النظرة بل راحت تقص الحكاية على أقاربنا بأسلوب وكلام لا يدعان أى شك فى أنى حمار من أطول الحمير آذانا وأنا ساكت ، لأن كل شىء كان يثبت أنها هى الصادقة وأنا الكاذب أو على الأقل المخطىء . ولا أحتاج أن أقول إنى اضطررت أن أطعم كل هذا الجيش على حسابى . ولكن اليوم كان على الرغم من هذه الخسارة الفادحة ممتعاً وكان أحلى ما فيه أننا نمنا على الأرض بعد الغداء الباهظ التكاليف بجانب الماء الذى يتدفق كالشلال من العين وهو يرغى ويزبد ثم يتحدر فى أقنية ضيقة محفورة له تتخلل الحديقة الواسعة

ولما آن أن نعود تركت هذه الرقعة لصديقنا وزوجته :

« لا شك أن النسيان أرخص . ولكنه كلفنى ما أخشى أن أحسبه ، فقد جئنا إليكما من غير أن نفطر فنجوتما أنتما ووقعت أنا فى الفخ ؛ وصدق مرة أخرى أن من حفر بئراً لأخيه وقع فيها . على أن هذا هين وإنما الذى يضيق صدرى به ولا أكاد أقوى على احتماله أن زوجتى تحملنى التبعة عن هربكم ، وإذا كنت لا أطمع فى أن تردوا إلى ما أنفقته على إشباع هذه البطون الجائعة كلها ، فأنى أطمع أن تردوا ثقة الزوجة بى وذلك بأن تعترفوا بأنكم هربتم »

* * *

ولم نكد نبلغ بيتنا حتى وقفت الصانعة — كما يسمون الخادمة فى لبنان — وقالت لنا : إن السيدة زينب وزوجها كانا

في الأدب المقارن

غرض الأدب
في الأدبين العربي والانجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود

التعبير عن خوالج النفس الانسانية وتأثراتها بمظاهر الكون المحيطة بها هو غرض الفنون جميعاً ومن بينها الأدب . ولا يرقى الأدب إلى مرتبة الفن السامي حتى يكون ذلك التعبير عن المشاعر النفسية غرضه الوحيد ، منزهاً عن كل غرض خارجي أو مطلب مادي ؛ فاذا خالطه شيء من ذلك هبط إلى مرتبة الصناعة ، ولم يعد له في النفوس ذلك الوقع المطرب الذي تتركه فيها الفنون الجميلة

وقد ظل التعبير الحر الصادق عن نوازع النفس غرض الأدب الانجليزي الوحيد في أغلب عصوره ، فلم يكن غرض الكاتب أو الشاعر مما ينشيء إلا الافصاح عما يشعر به أو يفكر فيه ؛ فزخر الأدب في عصوره المتوالية بألوان الشعور وأشتات الأفكار في مختلف مشاعب الحياة ومتباين حالات النفوس ؛ وتناول بالتصوير والتحليل دخائل النفوس وأغوار الطباع وأطوار الأفراد والمجتمعات ، ولم يدع لخوله شاردة ولا واردة من نوازعهم وبوادرهم ومشاهداتهم وتأملاتهم إلا أثبتوها في منشآتهم وأبرزوها في روائع الصور

هنا ودفعت إلى ورقة فيها هذه العبارة الوجيزة :

« لا بأس ! لعلكم نسيتم . والآن يجب أن تجيئوا أنتم إلينا . ولن نهرب منكم كما هربتم منا »

قرأتها وهممت أن أدسها في جيبي ولكن زوجتي سألتني ماذا فيها ؟ فقلت إنهما يعترفان بخطئهما ، ودفعت إليها الرقعة وذهبت أعدو .. وكيف أقنعها بأن الذي وقع خطأ غير مقصود .. كلا . لا فائدة . والهرب أحجى وأرشد ... حتى تهدأ الفورة

ابراهيم عبد القادر المازني

وكذلك كان التعبير الصادق المنزه عن الغرض الخارجي غاية الكثير مما نظمه الشعراء وسطره الكتاب في العربية ، وحفل الأدب العربي بالرائع من الحكم والأمثال والدقيق من أوصاف النفس وغرائزها وميولها ؛ وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصى أو يشار إليها ، وإنما نذكر منها الوصايا المنسوبة إلى بعض فحول العربية ، كذي الاصبع العدواني وعلي بن أبي طالب ، ومنها وصية ابن هراسة لابنه حيث يقول : « إن من الناس ناساً ينقصونك إذا زدتهم ، وتهون عليهم إذا أكرمتهم . ليس لرضاهم موضع فتقصده ، ولا لسخطهم موقع فتحذره . فاذا عرفت أولئك بأعيانهم ، فأبد لهم وجه المودة ، وامنعهم موضع الخاصة ، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزاً دون شرهم ، وما منعتهم من موضع الخاصة قاطعاً بحرمتهم »

غير أن في الأدب العربي بجانب ذلك آثاراً كثيرة لم يكن التعبير عن خوالج النفس غرضها ، ولا الصدق شعارها ، فهي لذلك لا ترقى إلى مرتبة الفن الجميل ، ولا تؤثر في النفس تأثيره ، وإنما هي أدنى إلى الصناعة ؛ لها كالصناعة غرض مادي تؤديه وغاية خارجية تخدمها . ولا غرو كان العرب يسمون النظم والنثر بالصناعتين ، ويعدون الأدب « صناعة » أو « آلة » « يتعاطاها » صاحبها ، ولم يكن لكلمة « الفن » لديهم ما لها اليوم من المعنى السامي

بلغ الأدب العربي مرتبة الفن السامي في عصر الجاهلية ، حين كان أشراف القبائل وحكاؤها يودعون الشعر حكمتهم وأطرابهم وأحزانهم ؛ فلما قامت الدولة العربية صحبتها عوامل لم تكن لتساعد على اطراد رقي الأدب في وجهته الصحيحة ، بل عملت في غير ناحية على تقهقره وفقدانه ما كان له في الجاهلية من قوة وصدق وسمو ، وهي سمات الفن الصحيح ، حتى أصبح من السهل تقسيم الآثار الأدبية ، بل تقسيم آثار كل أديب مفرد ، إلى قسمين : قسم صادق يصدر عن شعور صحيح ويدخل في دائرة الفن السليم ، وقسم كاذب مملوء بالمفارقات والمبالغات يمت إلى الصناعة ولا يمت إلى الفن

وأول تلك العوامل ذيوع التكسب بالشعر ، فأنه جعل للشعر غرضاً سوى التعبير عن خوالج النفس الذي هو غرض

الفنون جميعاً ، وصـير له غاية مادية هى صلة الممدوح التى قامت مقام الحافز النفسى والشعور الصادق ، فسارع إلى الشعر الكذبُ والمبالغـة ، وهبط عن مرتبة الفن السامى وصار صناعة تمارس ويبرّز فيها ذوو اللباقة والمهارة ، لا أصحاب العبقرية والنفوس الكبيرة ؛ وداخل النثر من هذه السمات ما داخل الشعر ، لأنه مثله سخر نفسه لخدمة الحاكمين

وثانى العوامل هو نزعة المحافظة والتقليد ، التى سرعان ما تمكنت من الأدب العربى ، حين أشفق العرب على أدبهم ولغتهم ودمائهم مما اجتاحها من هجنة الأعاجم الداخلين فى دينهم ولسانهم ومجتمعهم ؛ أدى ذلك إلى الضن الشديد بآثار المتقدمين والتبجيل العظيم لأشكال الأدب وصوره فى عهدهم ، والاعجاب المطلق بأشعارهم وخطبهم ذات اللغة الفصيحة السليمة ؛ وتمادى الشعراء فقلدوهم فى وعورة الألفاظ أحياناً ، وفى المعانى وضرب الأمثال والاستهلال بالنسيب ، وتمادى الكتاب فأنحوا على آثار المتقدمين محاكاة واقتباساً وتضميناً ؛ وفى مثل هـذا الجو من المحافظة والتقليد يخمد الفن الصحيح الذى يصدر عن صادق الشعور ، ولا يسود إلا الصناعة التى تتكلف الألفاظ وتتعمل المعانى

وثالث تلك العوامل اعتزال الأدب العربى غيره من الآداب ، فهو قد أهمل الأدب اليونانى ولم يتأثر بالأدب الفارسى ، إلا قليلاً عن غير قصد ، واتصال الأدب بغيره من آداب الأمم شرط أساسى لدوام رقيه فى معارج الفن السليم ، لأن ذلك الاتصال يدخل فى الأدب صادق النظرات والأفكار ، التى تشترك فيها الانسانية جمعاء على اختلاف المشارب واللغات ، دون التفات إلى زخارف الألفاظ وتلفيقات المعانى ، التى لا تمت إلى الطبع السليم بصلة ، ولا تتعلق من الفن الصحيح بسبب . واعتزال الأدب غيره ينحرف به شيئاً فشيئاً عن وجهة الفن القويمة ، ويميل به إلى ناحية التكلف والتعمل والتقليد والجمود والصناعة

ولما كان الكاتب يكتب والشاعر ينظم ونصب أعينهما غايتان : إرضاء صاحب السلطان الذى تسخر له الأقلام ، وإرضاء النقاد الذين لا يريدون عن مناهج الأولين حولاً ، لم يسعهما إلا الاقلاع عن محاولة التعبير عن شعورهما الصادق ، واللجوء إلى محاولة إظهار البراعة ليرضيا الفريقين ، فصارت البراعة — لا صدق التعبير عن الشعور — هى غاية الأديب . فالبحترى وابن المعتز والبديع وابن العميد والحريرى وأضرابهم ، قلما نظموا أو نثروا بغية التعبير الصادق البسيط عن مشاعر حارة تمتلج فى نفوسهم ولا يستطيعون لها حبساً ، وإنما كان إبداء البراعة وطلب الاعجاب وتحرى الاغراب ديدنهم فى معظم ما أنشأوا ، وكتاباتهم لذلك — حتى حين يجيدون — فاترة الشعور باردة الوقع لا تنفذ إلى القلب ولا تهز النفس ، ربما أوحت إلى المطالع أن أصحابها بارعون ، ولكن قلما توحى إليه أنهم نوابغ عظماء ذوو نفوس كبيرة ونظرات بعيدة

ولما جهد الأدباء فى تقليد معانى الأقدمين ومناحيهم ، واختراع أوصاف الممدوحين ومحامدهم ، حتى لم يعُدْ فى مجال المعانى متسع لتكلف ، التفتوا إلى الألفاظ يطالبون فى مجالها السبق والبراعة ، ففشت المحسنات اللفظية ، فكانت انحرافاً جديداً للأدب عن جادة الفن القويم ؛ وشغل الأدباء بالسجع والجناس والمقابلة وحسن التعليل عن صدق الشعور وصدق التعبير ، وركبت الصناعة الأدب من ناحيتيه : ناحيتى المعنى واللفظ

وطلب الأدباء البراعة من طريق آخر : فأقحموا فى الأدب ما تقفوه من مصطلحات العلوم ومسائلها ، كعلوم النجوم والكلام والنحو والمنطق ، فتجلت البراعة فيما أنشأوه من ذلك ولكنه فقد دبيب الحياة ، فمن تقليد قضايا المنطق قول المتنبى :

تقولين ما فى الناس مثلك عاشق   جِدِى مثل من أحببته تجدى مثلى

وقول الشاب الظريف :

رمى فأصاب قلبى باجتهاد   صدقتم : كل مجتهد مصيب

ومن استخدام مصطلحات النحو قوله :

لأى شىء كسرت قلبى   وما التقى فيه ساكنان ؟

ووقر فى نفوس كثير من الأدباء أن الأدب مجال للصناعة والبراعة ، وليس مظهراً لأحاسيس النفس ولا مستودعاً لخوالجها . فاذا أعوزهم ممدوح يثنون عليه بما هو ليس أهله من المبالغات ، طلبوا البراعة واصطنعوا التظرف بوصف أمر تافه ، كحمل هزيل أو قدح خمر أو محبرة أو يراع ، الى غير ذلك مما لا خطر له فى ذاته ، ولكنه يمنح الفرصة لطلاب البراعة ليظهروا لطافة بديهتهم وحسن محاضرتهم ووفرة محصولهم اللغوى . وكثيرا

ما كانوا يتبادلون ذلك فى الرسائل الاخوانية ، والكتب التى يستهدون فيها الخمور والأقداح والمزاهر والقيان

ولأصدار الأدباء فى كتاباتهم عن أغراض مصطنعة بعيدة عن غرض الفن الصحيح نجد الكثيرين منهم يقفون مواقف متناقضة : فيمدح أحدهم الرجل أرفع المدح ثم يذمه أقبح الذم ، فأن خاف بطشه عاد مستغفرا متزلفا يقول كما قال الأعشى :

سأمحو بمدح فيك إذ أنا صادق   كتاب هجاء سار إذ أنا كاذب

ويطلب أحدهم البراعة بتحسين القبيح وتقبيح الحسن ، أو بمدح الشىء الواحد وتحسينه ثم ذمه وتقبيحه ، كما فعل الحريرى حيث جعل أبا زيد يمدح الدينار بمقطوعة من الشعر ، ثم يذمه بأخرى حين اقترح عليه بعض الحضور أن « يذمه ثم يضمه » ، ويدّعى المتنبى الغرام والصبابة والنحول فى مطالع أماديحه ، فاذا أفصح عن صادق شعوره وميوله قال إن المجد ليس زقا وقينة ، وأن للخود منه ساعة ثم بينهما فلاة ، وأنه يرى جسمه يكسى شفوفاً تربُه ، وقال :

ومن خبر الغوانى فالغوانى   ضياء فى بواطنه ظلام

وجاء النقاد فأقروا الشعراء على هذا التناقض ، وأباحوهم ضروب اللغو والهذر ، وأخذوا تلفيقاتهم فى قصائد المديح مأخذ الجد ، وأضاعوا وقتهم ومنطقهم وحججهم فى الموازنة والمفاضلة بينها ، وفضلوا شاعرا على شاعر ، لا لصدق شاعريته وصدق فهمه للحياة ، ولكن لبراعته فى احتيال الحيل اللفظية والمعنوية لتفخيم شأن ممدوحه . فقدامة بن جعفر مثلا يقدم الأعشى فى قوله فى ممدوحه :

وإذا تجىء كتيبة ملمومة   شهباء يخشى الراهدون نهالها
كنت المقدم غير لابس جُنة   بالسيف تضرب مُعْلَما أبطالها

على كثير لقوله فى ممدوحه :

على ابن أبى العاصى دِلاص حصينة   أجاد المُسَدِّى نسجها وأذالها
يود ضعيف القوم حمل قتيرها   ويستظلع القرم الأشم احتمالها

لأن الأول جعل صاحبه يغشى الوغى غير مدرع ، والثانى وصف صاحبه بالتحصن وراء الدروع الثقيلة . يفاضل قدامة بينهما بصرف النظر صرفا تاماً عما إذا كان المعنى المذكور فى كل حالة صحيحاً ، فالمسألة لا تتعلق لديه بالتزام الصدق ، بل البراعة فى الاختراع والمبالغة وتهويل أمر الممدوح ووصفه بكل عظيمة صحيحة أو مزعومة ، ممكنة أو مستحيلة

وبهذا القياس المجحف الذى لا يقيم اعتباراً لصدق الشعور والتعبير ، بل يجعل الاعتبار كل الاعتبار للبراعة واللباقة والخفة والاحتيال ، قاس كثير من النقاد آثار الأدباء وفاضلوا بينهم . بل إن النقاد صرفوا جل اهتمامهم إلى ذلك الضرب الصناعى من الأدب الذى قوامه التعمل والاختراع ، وعماده الأقيسة المنطقية ، بل المغالطات المنطقية ، وأهملوا الضرب الصادق الذى يُترجم عن شعور الأدب الصحيح . فاذا رأوا أثراً من هذا القبيل مروا به كراما ولم يروه أهلا للنقد والتحليل ، لأنهم يرونه بسيطا عاديا غير محتو على براعة لفظية أو معنوية . والأدب كان فى نظر كثير منهم صناعة لا فناً . وقد سمى أحدهم وهو أبو هلال العسكرى كتابه فى أصول الشعر والنثر : « كتاب الصناعتين »

والحق أن أكثر ما يعرف اليوم بالفنون الجميلة كان لدى العرب صناعات ؛ فالأدب والموسيقى والعمارة والنحت والتصوير كل هذه كانت أشبه بالصناعات ، لأنها كانت فى أكثر الأحيان تخدم أغراضاً مادية خارج ذاتها ، وكانت تنتج نتاجها فى ظلال الملوك والكبراء الذين يسخرونها لأبهتهم ومتعتهم ، ولم تنل من الاستقلال الفنى والغرض الذاتى مالها اليوم . ومن ثم ظل الفنان الأخيران دائما فى حالة بدائية لم يتعدياها الى أطوار الفن السامية

ولقد تترعرع الفنون الأخرى كالعمارة والنحت والتصوير فى ظلال الرعاية والمنحة من جانب الأمراء ، كما حدث فى عهد النهضة الايطالية التى أنجبت رافائيل وميكلانجو ودافنسى وعشرات من أمثالهم ، أما الأدب فهو أشد احتياجاً إلى الحرية وأسرع انحطاطا وركودا فى ظلال الاستبداد ، فأن الملكية المستبدة إذا سخرته لأغراضها وسيرته فى ركابها حملته على إخفات الحق وإغفال الصدق ونسيان رسالته ؛ ولهذا ازدهر الأدب فى انجلترا أكثر من ازدهار غيره من الفنون التى اقتبسها الانجليز عن أهل القارة ، حتى بارى الانجليز غيرهم فى الآداب وبذوهم ؛ فقد ألفى الأدب فى انجلترا من حرية الفكر والتعبير أكثر مما ألفى فى غيرها . ولنفس السبب ازدهر الأدب فى المدن الأغريقية ، على حين كان رقيه فى روما الملكية قصير العمر

لم يُسخِّر الأدب الانجليزى نفسه لتمليق الأمراء والكبراء ، كما سخَّر الأدب العربى نفسه ، ولم يصرفه طلب رضاهم عن طلب رضى الفن الصحيح ، وإن كان بعض رجاله — منذ عهد شكسبير — قد تزلفوا إلى سلطان آخر غير سلطان الحاكمين ، فطلبوا رضى الجمهور من رادة المسارح وقراء الكتب ، ولو بتضحية رضى الفن أحياناً . على أن ذلك قلما كان ؛ وأكثر الأدباء احتفظوا بسمو الأدب وأرستقراطيته ، ولم يلبث انتشار التعليم أن وسع دائرة القراء الذين يقدرون الفن الصحيح ويتسامون عن الفضول ؛ وانقسم الكتاب إلى فريق محافظ على سمو الأدب ، فهم عماد الأدب السامى ، وفريق ينشد إقبال العامة باللغو والهراء . ولم يحدث أن هبط الأدب جملة عن مرتبة الفن الصحيح المنزه الغرض

كذلك ربأ بالأدب الانجليزى أن تركبه الصناعة وتغلبه على غرضه الصحيح ، دوام تبصر رجاله فى الآداب الكلاسية والأوربية المعاصرة ، فكان معين تلك الآداب يجرى فى شرايينه من آن لآخر ، فيجرد ما فَتَرَ فيها من دفعة الحياة ، فكلما مر الأدب بطور ركود تغلب فيه الصناعة الفن الصحيح — كذلك الذى مر به فى بعض القرن الثامن عشر — شعر الأدباء بعظيم الفرق بينه وبين الآداب الأخرى ، فانتشلوه من وهدته

ومما ساعد على احتفاظ الأدب الانجليزى بصبغته الفنية ، وحماه الهبوط إلى درك الصناعة الرخيصة ، إطلاع فحوله على آثار الفنون الأخرى الراقية ، من تصوير ونحت ، تلك التى تشترك جميعاً فى غرضها الذى ذكر فى أول هذه الكلمة ، وهو التعبير الصادق عن الشعور الصحيح ، فكان للأدب دائماً من تلك الفنون أسوة ، تهيب به أن يحيد عن جادته أو ينحرف عن غايته ، أو يضل فى تيه التلفيقات المعنوية والزخارف اللفظية

وقد راج فى الأدب الانجليزى ضروب من القول قد يتبادر إلى الظن لأول وهلة أن الأديب يتجرد عندها من نوازعه الشخصية وشعوره الصحيح ويطلق العنان للخيال والصناعة ، كالرواية التمثيلية والقصة والملحمة التى يتحدث مؤلفها عن أشخاص بعيدين عنه ويصف عواطف غيره وتصرفاتهم ، ولكن الواقع أن المؤلف فيها لا يقل صدقاً ووفاء للحياة وحقائقها عن المؤلف فى غيرها ، ولا هو يتجرد من ميوله ، بل يخلع تلك الميول على أبطاله ، وينطق أفكاره ومشاهداته على ألسنتهم ؛ فكل بطل من أبطال شكسبير ، كهملت وعطيل ولير ، يمثل حالة من حالات نفسه وفكرة أو فكرات من أفكاره ؛ والقصصى الانجليزى الذى يتحدث عن الآخرين فى كتاباته أصدق وأكثر إفصاحاً عن ذات نفسه من الشاعر العربى الذى يشبب بليلى ودعد ويصف ممدوحه بغير ما يعلم فيه

ففى كلا الأدبين العربى والانجليزى ترى فى آثار الفحول دلائل الطبع الجزل والشعور الصادق والفن الصحيح ، ولكن نظراً لتلك العوامل التى صاحبت الأدب العربى فأفشت الصناعة فى كثير منه ، وهذه العوامل التى لازمت الأدب الانجليزى فساعدته على الاحتفاظ بسمات الفن ، جاء الأدب الانجليزى أحفل بصادق الشعور وجاد الأفكار من الأدب العربى ، وكان التعبير الصادق عن النفس الانسانية غرضه دائماً ، على حين زاحمت هذا الغرض فى الأدب العربى أغراض أخرى : كالصناعة وطلب البراعة والاغراب والتظرف ومحاكاة الأقدمين ؟

فخرى أبو السعود

صخرة النجوى (*)

لألفرد دى ميسيه

« الحياة عذبة سائغة ولكن
عند من لا يعرفونها ... »

بقلم الأستاذ أحمد المحمود

وكان الليل جميلا رائعاً ، والقمر يصّاعد متئداً على شمالى ، وقد اجتذب اليه نظر « بريجيت » طويلا وهو يخرج متسللا من الأسنان السوداء التى كانت الهضبات الحرِجة ترسمها على رقيع الأفق . ورقت أغنية « بريجيت » الشجية حينما أخذ القمر يتخلص من أسوجة الغابة الكثيفة وتتسذرّى أضواؤه فى الفضاء وعلى الجلَد ، فانحنت على تطوق رقبتى بذراعيها قائلة :

« لا تظنن أننى لا أعلم قلبك ، وأننى أنتسب لك لايلامك إياى ؛ وليست الخطيئة خطيئتك إذا ضقت ذرعا يا صديقى العزيز بنسيان حياتك الماضية . ولقد أحببتنى وكنت مؤمنا بهذا الحب ولن أتأسف — إذا ما أسكت هواك نأمتى — على هذا اليوم الذى استسلمت لك فيه . واعتقدت أنك بُعثت الى الحياة ثانية وأنك ستنسى — بين ذراعى — ذكريات اللواتى أضعنَك . واحسرتاه يا أكتاف ! لقد تبسمت فيما مضى من هذه التجاريب الباكرة التى كانت لك فى حياتك والتى كنت تدل بها على كالاطفال الذين لايدرون من أمور الحياة شيئا ، وحسبت أن ليس لى إلا أن أشاء ، وأن قد سيطفرُ كل ما فى قلبك من صلاح وخير على شفتيك للقبلة الأولى التى منحتك إياها ، وقد كنت أنتَ تحسبُ ذاك أيضاً ولكن كنا مخدوعين . أيها الطفل ! ... إنك تحمل فى قلبك جرحاً لا يندمل ، ويجب أن تكون قد أحببت هذه المرأة الخادعة الفاجرة حباً جماً ؟ أجل ... وأكثر مما أحببتنى وإلى أبعد الحدود واحسرتاه ! ... لأننى لم أستطع — مع حبى الشديد البائس — أن أمحو من مخيلتك صورتها ! ويجب أن تكون خديعتها لك قاسية لأن أمانتى تبذل لك عبثاً ؟ والأخريات الشقيات ماذا فعلن لتسميم شبابك ؟ وهل كانت الملذات التى بعنها منك حادة ورهيبة لتطلب إلى أن أماثلهن وأتأثرهن ! ... وتذكرهن وأنت بجانبى ؟ ما أقساك أيها الطفل ! ... ولأحبُّ للنفس وأثلج للفؤاد أن أراك ظالماً مغضباً ، وأن تنسب إلى الجرائم الوهمية وأن تثأر منى للأذى الذى لحق بك من خليلتك الأولى من أن تطفر فى وجهك هذه المسرة الرهيبة وهذا المظهر الخليع الذى ينتصب حجاباً من الصلد الأصمّ بين شفتى وشفتيك . قل لى أكتاف ، لم هذا الصقيعُ فى شفاهك ؟ ولم هذا التهكم والاحتقار يبينُ فى حركاتك وسكناتك ؟ وإنك لتسخر — بحزن شديد — حتى من أعذب صباباتنا ، وكيف استحوزت على أعصابك الهيجة هذه الحياة الماضية الرهيبة حتى تنثال من فمك مثل هذه الشتائم بالرغم منك ؟ أجل بالرغم منك لأن لك قلباً نبيلاً وتصطبغ خجلاً مما تفعل . أنت تحبنى كثيراً ويجب أن يُسمدك هذا الحبُّ لأننى آلم منه كما ترى . آه ! أعرفك الآن ! .. وعند ما وقع بصرى عليك لأول مرة وأنت على حالك هذه عرانى هول شديد لا شىء يعطيك صورة عنه . ولقد حسبتك ماجناً فى توددك إلى ، وأنك تحاول خدعى بسيماء هذا الحب الذى لم تكن لتحس به ، وإنى أرى حقيقة نفسك كما بدت لى لأول وهلة . أواه يا صديقى ! لقد فكرت فى الموت وأية ليلة نكراء قضيت ! أنت لا تعلم حياتى ولا تدرى أننى — أنا التى أخاطبك — قد خلصتُ من هذه الحياة بتجربة هى أعذبُ من تجربتك وأحلى . وا أسفاه ! الحياة عذبة سائغة ولكن عند من لا يعرفونها

أى عزيزى أكتاف ! لست بالرجل الأول الذى أحب . إن فى أعماق هذا القلب ذكرى مشئومة راقدة أحب أن أطلعك عليها

أعدّنى والدى منذ بكورى فى الحياة إلى ابن صديقه الأوحد ، وكانا جارين فى الدار والأرزاق ؛ وعاشت العائلتان على هذا النمط من الاختلاط والوحدة . مات أبى وتصرّم زمن طويل على فقدان أمى فانتقلت الى وصاية خالتى التى تعرفها ، وأزمعت خالتى سفراً فأسلمتنى إلى حمِيّ الذى عشت فى كنفه برهة من الزمن ،

(*) القطعة مترجمة عن كتاب « اعترافات ابن الجيل » لالفرد دى ميسيه طبعة لاروس فى القسم الثالث من الكتاب :
Confesions d,uu cufaut du Siécle

وكان يدعونى بابنته ، وكان الجيران يعرفون خطوبتى من ابنه ، فيتركون لنا الحرية التامة

تظاهر دوما هذا الشاب الذى لا أدرى حاجة الى ذكره بمحبتى ، فقد كان صداقة ساذجة من أيام الطفولة تحولت الى حب وهيام مع الزمن . وكان يقص على عند ما نخلو ، أو نكتنّ فى زاوية من البيت عن السعادة التى تنتظرنا وذهوب صبره ، وكان يكبرنى بسنة واحدة ، ولكنه تعرف الى رجل من الجيران سيء العيش محتكر للصناعة فوسوس له وأغواه ، وبينما كنت أستسلم إلى مداعباته بوداعة الطفل إذا به يغدر بوالده ويتركنى بعد أن أضاعنى

أتى بنا والده إلى غرفته وأبلغنا موعد الزواج فلقينى فى مساء اليوم نفسه فى الحديقة ، وباح لى بقوة عما يكنه لى من الحب ، وأنه زوجى منذ الآن أمام الله ونفسه ما دام أن موعد الزواج قد تحدد . فلم أعتذر اليه بغير شبابى وجهلى وسذاجتى ، فاستسلمت اليه قبل أن يتم الاقتران الشرعى ، ولم تمض ثمانية أيام حتى غادر بيت أبيه وهرب مع امرأة قدمها له صديقه الجديد فكتب لنا أنه مسافر إلى ألمانيا ومنذ ذلك الحين لم نره

هذه هى قصة حياتى وقد عرفها زوجى كما تعرفها أنت الآن ، ولى من عزة نفسى وكبريائها ما أهاب بى إلى العزلة ، فآليت ألا أقرب من رجل يسبب لى ألما وضرًا أكثر مما لقيت فى سابق حياتى ؛ ورأيتك فنسيت قسمى ولكن لم أنس جرحى ، فعليك أن ترأف بتضميده . وإذا كنت مريضاً فأنا مريضة أيضاً ، فيجب أن نتعهد نفسينا بالتداوى . وأنت ترى يا أكتاف أننى أعرف أيضاً قيمة الذكرى الماضية التى ما تزال تقض مضجعى إلى جانبك ، ولكنى سأتذرع بالشجاعة والصبر لأننى قاسيت أكثر مما قاسيتَ ، ومن حق البدء فى هذا العمل ، وإن قلبى لقليل الثقة بنفسه ، وأنا أضعفُ عن احتمال أكثر مما احتملت . وكم كانت حياتى سعيدة فى القرية قبل قدومك اليها ! وما أكثر ما أخذت على نفسى ألا أغيّر من حالها شيئاً مما جعلنى أتطلبُ منها ما لا تستطيع أداؤه ، ولكن لتكن مشيئة القدر فأنا لك الآن ! أو لم تقل لى فى أوقات انبساطك بأن العناية الألهية سخرتنى للحدب عليك كأم رؤوم ؟ الحق ماقلت ياصديقى العزيز . أنا لست خليلتك كل الأيام وأود أن أظفر بأكثر من هذا فى بعضها وأن أكون لك أماً حتى لا أرى فيك حبيباً يقسو على حبيبته . أواه يا أكتاف ! لقد أصبحت طفلاً مريضاً عاتياً متشككا ، أريد أن أمرضه بنفسى وأبعث فيه الرجل الذى أحب وأهوى حتى الأبد . فليمدنى الله بالقوة ! ... قالت ذاك ونظرت إلى السماء ضارعة : ربِّ يا من ترانا وتسمع نجوانا ! يا إلٓه الأمهات والمحبين ، هب لى الحياة للقيام بهذا الواجب ! وإذا كان لى أن أخفق وأن تثور كبريائى أو أن ينحطم قلبى البائس بالرغم منى وأن حياتى كلها ...

ولم تتم الكلام حتى غامت عيناها بالدموع فلم تعد تستطيع النطق . يا إلٓهى ! . إنى أراها راكعة أمامى ويداها مضمومتان منحنية على الصخرة والهواء يموجها كما يموج حقول الخلنج المجاورة . يا لك من مخلوق ضعيف سام ! لقد صات من أجل حبها ثم أنهضتها بذراعى متمتما : « واصديقتى الوحيدة ! ووا خليلتى وأمى وأختى !.. اضرعى إلى الله واطلبى منه أن يمدنى بالقدرة على حبك والاخلاص لك كما تستحقين . توسلى بأن يمد فى حياتى وأن يقدرنى على العيش وأن يغسل قلبى بدموعك وأن يجعله قربانا مقدساً نقياً نقتسمه أمام الله !... »

واستلقينا على الصخرة وغرق كل ما حولنا فى هدوء عميم وانبسطت السماء فوق رؤوسنا ألقة بالنجوم « أو تذكرين يا بريجيت لقاءنا الأول ؟ »

حمداً لك اللهم ! ومنذ هاتيك الأمسية لم نعد إلى تلك الصخرة التى ظلت لنا قدساً طاهراً والطيف الأبيض الوحيد من حياتى الماضية ما يمر من أمامى إلا ويخترق بصرى ويملأ حسى

(طرطوس) أحمد المحمود

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

عزرائيل يقبض بيد صفراء

— ١ —

كل الناس متفقون على أن ولتر ريد Walter Reed ، رئيس بعثة الحمى الصفراء ، كان رجلاً ذا أدب جم ولطف كثير ، لا يؤخذ بعلامة ، ولا يعوز ذمته طهر ؛ وكان يألف الاعتدال فى أعماله ، ويجرى على المنطق فى تفكيره ؛ ولا شك أيضاً فى أنه قامر بحياة آدميين فأقحمها المخاطر على علم فى سبيل أبحاثه ، ولم يكن له مندوحة عن ذلك ، فالحيوانات تأبى كل الأباء أن تأخذ عدوى الحمى الصفراء

كذلك ليس بين الناس اختلاف فى أن جيمس كارول James Carrol ، وقد كان خشاباً فيما مضى ، كان على أتم استعداد للتضحية بنفسه فى سبيل ما يريد ريد Reed إثباته ، وأنه لم يكن ممن تأخذه عاطفة أو رحمة بأرواح الخلق إذا ما أراد برهان أمر جل أو قل

كذلك يجمع الكوبيون[1] Cubans ، وهم الذين شهدوا البعثة تعمل عن كثب فى أرضهم ، على أن الجنود الأمريكيين[2] الذين تطوعوا بأجسامهم فى التجارب عوضاً عن الخنازير الغينية المعهودة كانوا على جانب من الشجاعة لا يوصف . كذلك أجمع الأمريكيون الذين كانوا عند ذاك فى كوبا وأكدوا أن المهاجرين الاسبانيين الذين تطوعوا فى التجارب مكان الخنازير الغينية لم يكونوا شجعاناً مخاطرين ولـكن تجاراً طامعين . أفلم ينقد كل واحد منهم مائتى ريال أجراً عن مخاطرته ؟

وما من شك فى أنك تستطيع أن تنحى باللائمة الشديدة على القدر أن قسا تلك القسوة البالغة على جس لازار Jesse Lazear ولكن كذلك لا بد أن تنحى باللائمة عليه هو أيضاً ، فهو الذى أبى أن يطرد تلك البعوضة التى وقعت على ظهر يده ، وهو الذى أذن لها أن ترتوى من دمه ملء جوفها . والقدر إن كان قسا عليه فقد حن له من بعد موته وعطف على ذكره ، فحكومة الولايات المتحدة سمت باسمه مدفعية فى ميناء بلتيمور[1] إحياء له ، ورتبت لأرملته معاشاً خمسمائة وألف ريال

وسترى أن قصة الحمى الصفراء لا نقاش فيها ولا خصام ، فحكايتها متعة للحاكى ، وهى فوق ما فيها من المتعة ضرورية لكتاب يحكى عن المكروب ورجاله ، فهى تحقق الحلم الذى ارتآه بستور ، فهو لو قدر الآن لصاح من قاع قبره الجليل بباريس يتحدى العالم أجمع تيهاً وفخوراً : « ألم أقل لكم ذلك من زمن بعيد » . ذلك أننى الآن وأنا أكتب هذا أعلم أن الدنيا أصبح لا يوجد بها من سم هذه الحمى ما تنتفطى به رؤوس ستة دبابيس . وقد لا تمضى عدة سنوات أخرى حتى لا يكون على ظهر الأرض كلها ذرة من سمها ، وتصبح الحمى خبراً يروى كبعض البائدات — هذا إذا لم نكن فوتنا غلطة خطيرة فى التجارب المحكمة المريعة التى قام بها ريد وجنوده الأمريكيون ومهاجروه الاسبانيون

كانت هذه الحرب التى انتهت بالغلبة على الحمى الصفراء مثلاً جيلاً للتعاون الجيد ، انتظم فى إثارتها وإدارتها جنود من أعجب الجنود . وكان أول من قدح شرارتها رجل عجوز غريب يدعى الدكتور كرلوس فنلى Carlos Finlay ، أعنى من اللحية ذقنه ، ولكنه أنبتها على كل من صدغيه ، فجاءت جملة يغبطه الناس عليها . وكان يخلط فى التجارب تخليطاً . وحسبه أفاضل الكوبيين وحكماء الاطباء رجلاً مغفلاً قديم الغفلة مغرماً بالنظريات . وعده الناس أجمعون رجلا مأفوناً جسوراً . فهذا الرجل هو الذى خمن فى هذه الحمى تخمينة أبعدت فى الاغراب

(١) نسبة إلى كوبا وهى أكبر جزيرة فى جزر الهند الغربية وأغناها وتقع فى مدخل خليج المكسيك وعدد سكانها نحو ٣½ ملايين . وعاصمتها هفانا أوهبانا . استوطنها الأسبانيون واستعمروها وحكموها أربعة قرون ثم قامت ثورة عام ١٨٩٥ ضد الاسبانيين فتدخلت فيها الولايات المتحدة بالقوة . وكانت نتيجة ذلك استقلال كوبا عام ١٩٠٢ ، وحوادث هذا المقال حدثت فى فترة الثورة والحرب عام ١٨٩٩ إلى ١٩٠٢

(٢) يقصد بأمريكا والأمريكين فى هذا المقال الولايات المتحدة وسكانها

(١) ميناء شهيرة فى ولاية ماريلاند بالولايات المتحدة

ولكنها وقعت فى الصميم من الصواب

نعم عدّه كل أحد مأفوناً ، لأن كل أحد من الناس عرف عرفان اليقين كيف يدفع هـذا الوباء المخوف — هذه الحمى الصفراء ! وكان لكل أحد طريقته لدفعها : قال بعضهم : يجب تبخير الحرائر والستّان Satin ومتاع الناس جميعاً قبل خروجه من المدن الوبيئة . وقال آخرون لا ، فهذا غير كاف فلابد من حرقه جميعه ، لا بد من حرق الحرائر والستان والأمتعة ولابد من دفنها ولابد من إتلافها قبل دخولها مناطق الوباء . وقال قوم : ليس من الحزم أن تصافح أصدقاءك إذا كان لهم أقرباء يموتون بالحمى الصفراء . وقال آخرون : ليس فى هذا ضرر أبداً . وقالت جماعة ثالثة : إن الخير فى هدم المنازل التى دخلتها الحمّى ، فليس بكاف تطهيرها بدخان الكبريت . وعلى اختلافهم هـذا فقد أجمع الناس فى جنوب أمريكا وفى أوساطها وفى شمالهـا ، مدة قرنين تقريباً ، على أنه إذا حدث أن أهل مدينـة أخذت تصفرّ وجوههم ، وتَشخَص الريحُ من صدورهم ، ويصعد القيء أسودَ من جوفهم ، ثم أخذوا يموتون بالعشرات والمئات كل يوم ، لم يبق لعاقل ما يفعله إلا أن ينتفض على رجليه ، ويتجه إلى أقرب باب للمدينة ويسير قُدُماً غير لاوٍ عن يمين أو يسار حتى يخرج منها . ذلك أن عزْريل ذا اليد الصفراء يحذق النفاذ من الحيطان ، واستراق الخُطا على الأرض ، ومباغتة الناس من وراء الأركان ، حتى النار يجوس خلالها ؛ وقد يحق عليه الموت ، ولكنه لا يلبث أن يُبعث حيّا . ويقوم الناس لمطاردته وفيهم أحذق الأطباء ، فبعد أن يخطئوا فى مطاردته أكثر ما يستطيعون من أخطاء ، يأتونها بأكثرِ ما فى قلوبهم من هوس ، يجدون هـذا القاتل الفلاّت لا يزال فى قتله قائماً ؛ ثم يسأم القتل بغتة فيكفُّ عن الناس . ويجيئه هذا السأم دائماً فى شمال أمريكا بمجيء الصقيع

هذا ما كان من علم الناس عن الحمى الصفراء الى عام ١٩٠٠ وصاح فِنْلى عالياً ملء صدغيه : « أيها الناس إنكم تجهلون . أيها الناس إن الحمى الصفراء تأتى من بعوضة » ، فذهبت صيحته كصرخة فى واد ، وارتد عليه صداها بالسخرية والهوان

— ٢ —

فى عام ١٩٠٠ كانت الحال فى مدينة هبانا[1] أسوأ حال . فالحمى الصفراء كانت قتلت من الجنود الامريكيين ألوفاً أكثر مما أسقط رصاص الاسبانيين ، وكان المعهود فى الأوبئة أنها تنزل اختياراً من طوائف الناس حيث الفقر والقذر . أما هذه الحمى فنزلت فى أركان حرب الجنرال ليونارد وود Leonard Wood فذهبت بثلث ضباطه ، وضباط أركان الحرب ، كما يعلم الحربيّون ، رجال مصطَفون هم أكثر الجند نظافة ، وأكبرهم حظاً فى الحماية من الأمراض . وزأر الجنرال بأوامره فنزل رجاله على أهل هبانا غسلاً ودعكا حتى أحالوا الكوبيّين من قوم فى وسخهم سعداء إلى قوم فى نظافتهم تعساء ؛ وصنعوا كل ما يُصنَع للمدينة ، ولكن الوباء لم يتراجع ، بل تزايد حتى بلغ حدّاً لم يبلغه فى السنوات العشرين الماضية

عندئذ أبرقت هبانا إلى وشنطن Washington ، وفى ٢٥ يونيو عام ١٩٠٠ جاء البكباشى وَلْتَرْ ريد إلى كويمادوس Quemados فى كوبا ومعه أمر « بأن يُعنى عناية خاصة بكل ماله صلة بأسباب الحمى الصفراء وبطرق منعها » . وهذا أمر كبير ، يزيده كبره كبراً إذا ذكرنا مَنْ هو ولتر ريد ؛ هو أمر حاوله بستور من قبل ! وأين ريدُ من بستور ؟ بالطبع لم يكن ريد خلواً من المؤهلات ، ولو أنك قد تعترض عليها بأنها ليست مما له صلة بصيادة المكروب ؛ فهو جنديّ كأحسن ما يكون من الجنود ، خدم فى الغرب[1] فى سهوله وجباله أربعة عشر عاماً أو تزيد ؛ وكان يطير كبعض الملائكة والريح تعصف والسماء تثلج حتى يحط على فراش المرضى ممن هبطوا تلك البقاع استعماراً واستيطاناً ؛ وكان على خلق متين ، وجانب ليّن رقيق ؛ وكأنى بك تقول : ما الرقة وما الخلق الكريم ومكروبَ الحمى الصفراء وهو إنما يتطلب عبقرية نادرة لاصطياده . أنت على حق ، ولكن مع هذا سترى أن العمل الجليل الذى تم كان يتطلب قبل كل شيء خلقاً قوياً وإرادة من حديد . ومع هـذا فان ريد قام يمعض صيادة المكروب فى عام ١٨٩١ ، وقام يمعض بحوث متقطعة فى أحسن مدرسة للطب فى كنف أستاذ هو من غير شك أشهر أساتذة المكروب فى أمريكا ، وكيف لا يكون هـذا الأستاذ هكذا وهو الذى عرف كوخ وخالطه مخالطة الحميم حميمه

وجاء ريد إلى كيمادوس . وبينا هو يدخل مستشفى الحمى

(١) عاصمة جزيرة كوبا كما ذكرنا

(١) يقصد غرب الولايات المتحدة

الصفراء مرّ به عدد كبير من شباب الجند الأمريكي خارجا منه محمولاً على الأعناق ... فاطمأن ريد الى أن العمل لن يعوزه، وأن المرضى الهالكين كثيرون. وكان مع ريد الدكتور جيمس كارول James Carroll، ولم يكن ممن يوصف بالرقة تماما، ولكنك ستجد بعد قليل أنه نعم الجندي الباحث كان. ووجد ريدُ جِس لازار Jesse Lazear في انتظاره، وكان صياد مكروب متدرّب تدرب على صيادتها في أوربا. وكان له من العمر خمس وثلاثون سنة، وكانت له زوجة وطفلان خلّفهما وراءه في الولايات المتحدة، وكانت تبدو في عينه نُذُر الموت. وكان رابع الثلاثة أرستيدس اجرامونتي Aristides agramonte، وكان كوبياً، وكان عمله قطع جثث الأموات. وأحسنَ عمَله إحسانا كبيرا، ولكن اسمه لم يَذع لأنه كان أصيب بالحمى فتحصّن منها فخلا عمله من المخاطر. فهؤلاء الأربعة هم «بعثة الحمى الصفراء»

وكان أول ما صنعته البعثة أن عجزت عن إيجاد المكروب في الحالات الثمان عشرة الأولى التي فحصتها، وكان منها حالات غاية في السوء، ومات منها أربع. ولم يتركوا حالة من تلك الحالات إلا ضبعوا وأوغلوا فيها فحصاً وتنقيباً، فمن ابتزاز دم الى تزريع مكروب الى تشريح جثث. وكثرت زريعات المكروب حتى لم يحصرها عدٌّ، ولكنهم لم يجدوا في أيها بشلة واحدة. وكان الوقت صيفا، والشهر يوليو، وهو أسوأ الشهور لهذه الحمى. وخرجت الجنود من المستشفى متلاحقة وهي أجساد هامدة

خابت البعثة خيبة كاملة فيما ارتجت، ولكن من هذه الخيبة كان النجاح. فهذه إحدى خصائص هذه الصناعة صناعة المكروب. وهذا هو الأسلوب الذي يَدرُج عليه قُنّاصه ليجدوا منه مثل الذي وجدوا. وجد إسميث ما وجد من القُرّاد لأنه آمن بالذي قاله الفلاحون. ووجد رونالد رُس Ronald Ross (١) ما وجد مما يفعل البعوض الأشهب لأن بتريك منسون Patrick Manson (٢) دلّه عليه. وكشف جراسي Grassi (٣) ما كشف عن بعوضة الملاريا بدافع من وطنيته. وهذا ريدُ يخيب في أول خطوة يخطوها، وقد يقول كل أحد إنها أهم خطوة يخطوها، فاذا هو صانعه! لا شيء. فلم يبق لديه مايصنعه. وإذن توفّر لديه الوقت الكافي ليفرُغ الى نفسه ويُفكر ويُصغي الى صوت ذاك المغفل القديم ذي النظريات، صوتِ الدكتور كارلوس فِنْلي يصيح: «أيها الناس إنكم تجهلون! إن الحمى الصفراء تأتي من بعوضة!»

وخفّ رجال البعثة إلى هذا الرجل المأفون الذي ضحك منه كل سنّ، وصُمَّت دونه كل أذن. فتلقاهم هذا الشيخ بالسرور والترحاب وأخذ يفسر لهم نظريته، ويذكر لهم أسبابا غامضة إلا أنها مبدعة جميلة حَدَتْ به إلى اتهام البعوض في نقل أسباب الحمى الصفراء. وأطلعهم على نتائج تجارب أجراها هي بئست التجارب لا تقنع أحداً. وأعطاهم بعض بيض أسود اللون مستطيل كالأصبع وقال لهم: «هذا بيض الجرم». فأخذ ريد البيض وأعطاه إلى لازار؛ وكان هذا في إيطاليا من قديم فعرف هناك بعض الشيء عن البعوض. فأخذه لازار ووضعه في مكان دافئ فانفقس عن دُوَيدة انقلبت إلى بعوضة صغيرة غاية في الحسن كأنما شُدّت على ظهرها أوتار من فضة فتراءى كالقيثار

خاب ريد، ولاشك في هذا. ولكن إلى جانب إقرارنا له بالخيبة، يجب أن نُقرّ له بقوة الملاحظة الحادة، وبكثير من التمييز وحسن التبصر في الامور، وسنعلم فوق هذا أنه كان كبير البخت محظوظاً. ومن ملاحظته وهو في غمرة من إخفاقه أن رأى حالات للمرض ثقيلة فظيعة، احمرّت فيها عيون المرضى كأنما صعد الدم متدفقاً فيها، واصفرت صدورهم فصارت كأنها الذهب وأخذوا يفوقون (١) ويتهوعون إنذاراً بالسوء. ثم رأى الممرضات يَجُسن خلال هذه الحالات وينلن منها ويتلوثن بها، ولكنهن بالرغم من ذلك لم تجئهن الحمى الصفراء أبداً

(١) سير رونالد رس طبيب انجليزي اختص في أمراض المناطق الاستوائية وبخاصة الملاريا. وهو الذي اكتشف كيف أن الملاريا تنقل طفيلياتها من انسان لانسان بواسطة البعوض في عام ١٨٩٨ وما بعده. وكان ذلك تطبيقاً لنظرية بتريك منسون (المترجم)

(٢) بتريك منسون هو الذي اكتشف في عام ١٨٧٩ كيف أن دودة تسبب مرضا استوائياً مشهوراً (فلارية بنكروفت) إنما تنتقل = وهي جنين من إنسان لانسان بأن تقتبسها بعوضة من دم الأول، ثم هي تتطور في البعوضة، ثم هي تدخل بعضة البعوضة في جسم الانسان الثاني. على أن قيمة هذا الكشف لم تظهر إلا عام ١٨٩٨ لما طبقها السير رنالد رس في دراسة الملاريا

(٣) جيوفاني جراسي عالم إيطالي في الحيوانات مات عام ١٩٢٥. له أبحاث كثيرة في الأحياء الدنيا ومنها طفيلية الملاريا وطريقة انتقالها في الانسان المترجم

(١) فاق الرجل شخصت الريح من صدره من غير قيء

فناقش ريد رجال بعثته ، قال : « لو كان المكروب أصل هذه الحمى بمثل ما هو أصل الكوليرا والطاعون ، إذن لأصاب الممرضات فجاءتهن الحمى »

وأخذ ريد بعد ذلك يلاحظ ألاعيب شتى تقوم بها هــذه الحمى ، فرآها تظهر فى كبادوس فجأة حيث لامظنة لظهورها : جاءت رجلاً يسكن فى منزل رقم ١٠٢ بشارع دبل ، وإذا بها تنطمن هذا الشارع فتنعطف إلى شارع الجنرال لى فتنزل بساكن به فى منزل رقم ٢٠ . ثم هى تنط ثالثة إلى الصف الآخر من هذا الشارع . ولم يكن بين المصابين صلة ما ، ولا التقى بعضهم ببعض أبداً

قال ريد : « كأنى بهذا الحال يشير إلى أن شيئاً ينقل المرض عَـبْرَ الهواء من دار إلى دار » . وكانت هناك حيل غريبة أخرى تأتيها هذه الحمى درسها عنها كرتر Carter الأمريكى : تصيب الحمى رجلا فى منزل ، فقد يموت وقد يُشفَى فيرحل عن المنزل ، ثم يمضى على هذه الاصابة أسبوعان فلا يحدث جديد ، ثم ينقضّ البلاء كالصاعقة ، فاذا بنفر من أهل هذا البيت يصابون بها .

قال ريد لرجاله : « كأنى بمكروب من هذا البلاء يتريّث أسبوعين فى بطن حشرة ليستكمل نموّه » ، فلم يصدقوه ولكنهم كانوا جنوداً طائعين

قال ريد : « وعلى هــذا فقد يكون صواباً ما ارتآه فِـنْلِى Finlay عن البعوض ، وعلى أساس فكرته فلنقم بالتجربة » . فاعتزامه التجريب كان بناء على الاسباب السابقة والملاحظات السالفة ، وعلى الاخص بناء على أن البعثة لم تدر ما تصنع بعد الذى صنعته

وكان القول بالتجريب قولاً هيّناً . ولكن كيف يكون البدء فيه ، والمعروف الثابت أن الحمى الصفراء لا يمكن إعطاؤها للحيوانات ، حتى القردة وهى أقرب إلى الانسان خلْقاً لا تأخذها . ولكن لاثبات أن البعوض ينقل الحمى لا بد من حيوانات للتجريب ، وإذن لم يبق إلا أن تكون هذه الحيوانات آدمية . ولكن أيكون معنى هذا إعطاء هذه الحمى عمداً لبعض الناس ! إن الاحصاءات دلّت على أن الوافدة إذا حلّت فقد يموت من المصابين ثمانون وخمسة من مائة ، أو قد يبلغون خمسين ، وعلى أية حال لا يقل الموتى عن عشرين فى المائة . إذن فاعطاء الحمى عمداً لبنى آدم قتل للأنفس التى حرّمها الله ! ولكن هنا تتدخل شدة أخلاق ريد وصلابته لتلعب دورها الكبير . كان ريد رجلاً لا شائبة فى خلقه ، ولا عائبة فى ذمته ، وكان مؤمناً ، وبالرغم من اعتداله كان الرجل الذى اصطفاه الله لخدمة أهله بنى هذه الانسانية على مثل هذا الأسلوب الوعر المتطرف . وتخيّل إسميث أنْ قد ثبت له أن البعوض وحدَه هو ناقل هذه الحمى وتخيّل ما يكون بعد ذلك من أحداث خطيرة ... !

وطاف نهار يوم بين رجال صُفر يحتضرون . فلما جاء الليل بحرّه الشديد ، جمع رجاله ثم قام فيهم فقال من حديث : « ... فلو أننا نحن رجال هــذه البعثة قمنا نجازفنا بأرواحنا فأذنّا لبعوض تغـذّى من دم قوم محمومين أن يَمَصَّنا ويشرب من دمائنا ، إذن لضربنا خير المُثُل للجند الأمريكيين ... » . ونظر إلى لازار . ونظر إلى كارول

قال لازار : « أنا أقبل عضة البعوض » ، وكانت له زوجة وطفلان

وقال كارول : « اعتمد علىّ ياسيدى وتوكل على الله » ، وكانت له زوجة وخمسة أطفال ، ولم يكن له من متاع الدنيا غير أجر جراح مساعد فى الجيش ، وهو أجر حقير معروف ، وغير عقل الباحث ومزاجه

(يتبع) أحمد زكى

الخلود والأدباء

[مهداة إلى الأستاذ المازنى]

للأستاذ عبد الحليم عباس

يعتقد الأديب – والأديب الناشىء على الأخص – بأنه الانسان المصطفى لتأدية رسالة الحياة إلى الأحياء ، وأن غيره ... هذه المخلوقات التى لا تدين بالأدب ولا تتلقى وحى الفن ، ليست خليقة أن تساميه ، ولا أن تطال إلى مقامه . إنها تقف فى حيث تأخذ عنه ، وتسمع اليه ... ومن ثم فهو خالد بخلود هذا الأدب ، وما عداه – من عباد الله – فمن التراب وإلى التراب ... وهذه قضيةٌ مسلم بها – فى رأى الأديب – لا تحتاج إلى مماراة ، ومن هنا يجىء هـذا العنت ، وهذه السلسلة من الخيبة والاخفاق فى حياة الأديب . إنه يعجب من الناس كيف لا يقدرونه حق قدره ، وكيف لا يتنحون له عن مقامه الذى هو خليق به ، والذى أعدته الحياة له ؟ ولم لا ! وهذا العلم بالحياة ، وهذه المذاهب الفلسفية ، والتبحر فى فنون الأدب ، أليس من حقها أن تقدم صاحبها وتقدره من المجموع ؟ . . بلى بلى – هكذا يقول الأديب – ولكنه ظلم الحياة ، وجحود الأحياء ، فما عليه إلا أن يقف معانداً لهم ، مناهضاً لهذه الحياة ، ليُعاد اليه حقه السليب المهتضم . . .

وبين هذا العناد والاصرار يضيع الأديب حاضره ، ويخرّب حياته ، وقد يخربه الجوع ... قال لى أديب ناشئ : لست أنظر الى الجراح الماهر إن لم يفهم الأدب أكثر من نظرى إلى جزار وقال لى آخر : سأترك العمل عند هذا الوزير لأنه سخيفٌ وبذىء ؛ فقلت له : هل أصابك رشاش من بذاءته ؟ قال : كلا ؛ ولو حدث لأدّبته ؛ قلت إذن دعه وشأنه . قال لا أستطيع . وفى اليوم التالى أضاع أديبنا وظيفته . وقليـل من رجال الأدب من ربحت تجارته الدنيوية ، وأصبح من رجال الأعمال

مثل هذه الحوادث كثيرة نشاهدها فى كثير من الأحيان ، ونحتار فى تعليلها ؛ ولكن مردها فى البعيد يعود إلى فهم الأدباء للحياة على ضوء الأدب ، وإلى الذهاب فى تقدير قيمهم ، وإن من حقهم أن يتعالوا على الناس ، لأنهم من طائفة الخالدين ...

ويكبر الأديب ، ويشب عن الطوق – كما يقولون – وتمر عليه صورٌ من الحياة ، وتثقله تكاليفها اليومية السخيفة – كما ينعتها سبينوزا فيرى أن يقبل عليها ، ويضرب مع الضاربين فيها – إن أراد أن يعيش – فالكواكب ليست أرغفة ، والسماء لا تمطر بقلا ... وهكذا ترغمه الحيـاة على أن يصانعها ويصانع معها الأحياء . . .

. . . ولكن هل انتهى بينه وبينها الخلاف ؟ وهل أصبح هو وبينها على أتم وفاق ، يوم علم أن هذا الأدب الذى يدلُّ به ليس له كبير فضل ، وأن هذا الخلود لا يعنى شيئاً ؟ لقد خلدت فى الدنيا بغلة أبى دلامة ، وحمار الرشيد . أم أن فهمه للدنيا على هذا النحو الجديد ، يعنى بداية معركة جديدة حامية ، ولكنها تحرق الأديب قبل أن تحرق غيره .. أظن أن كثيرين يوافقوننى على أن هذه بداية معركة لا نهاية ؛ فالحياة لم تلق من هؤلاء الذين يناصبونها العداء طول حياتهم مثلما لقيت من هذه الطائفة من الأدباء الذين يضربون فى زحمتها ، ويسايرون مواكبها ، على أن يخرجوا لها ألسنتهم هزؤاً ، كلما آنسوا منها غفلة ، وليفضحوا سرائرها فى كل حين . . .

لم تنته المعركة بعد ، فليست قضية الخلود هى كل الخلاف بين الأديب والأحياء . فكيفما جارى الأديب الناس فى فهمهم للحياة فلا مشاحة فى أنه يفهم الحياة على وجهة تختلف عن الوجهة التى يفهمها عليها الأحياء ، إذ أن الأمر لا يتعلق باختياره ؛ وقد يحب هو أن يجاريهم فى كل شىء ، ولكن ما حيلته فى هذه الأعصاب التى ركبت على شكلٍ يختلف عما ركبت عليه أعصاب الناس – أحسن منهم أو دونهم هذا لا يعنينا – إنها مرهفة دقيقة ، مستوفزة ، تفعل بها الاشارة الغامضة ما لا تفعله بغيرها العبارة الصريحة ، كيف يحب ؟ وكيف يكره ؟ وكيف يجنُّ بالحسن ، وتفعل به الزهرة النضة أو الذابلة ؟ هذه أشياءٌ تفسيرها عند هذه الأعصاب

وشىء آخر يباعده عنهم ، ويمد فى شقة الخلاف ، هو أين يعيش الأديب ، وما هى دنياه .؟ ؟ لا نحب أن نكتب خيالاً ،

إن إدمان مطالعته فى نماذج الجمال والأدب ، ولد فى نفسه حباً للجمال . إنه يعيش بهذا الجمال الذى يطالعه به الخيال ، أكثر مما يعيش فى دنيا الواقع ... كما وإن إدمان دراسته للحياة والواقع فتح عينه على الجانب البشع منها . أليس فى الحياة بشاعة ؟ ومن لا يقول هذا مع الأديب ، حتى عباد الحياة أنفسهم ؟ إذن فهو يريد أن يتسامى فى هذا الواقع ليوائم بينه وبين ما فى نفسه من جمال ، يود أن يرتفع بهذه الخلائق ، يذيب نفسه قطرة قطرة ، ليرى الناس جمال الحق وعظمة الصدق ونبالة الوفاء ، ولكن الحياة والواقع يحتاجان إلى نقائض هذه ، فما هو إلا أن يشعر بالخيبة حتى يروح يحرق الأرم ويتلوى على نفسه ؛ وبين الخيال ، وركود الأحياء فى دنيا الواقع ، تختضب الأيام بدم الكاتب ، فهو على مثل هذا وفاق بين الأديب ودنياه ، على أننا لا نأسف — نحن النظارة — لذلك ، فلو لم يغمس الأديب قلمه بدمه ، ولو لم يقدم نفسه قرباناً للجمال والحق ... لما عرفنا أين يقع الجمال والحق فى هذه الدنيا . فلتدم هذه المعركة — وهى دائمة بفضل هذه الأعصاب الشاذة — ما برحت — وإن نحر فيها الأديب نفسه — تدنينا من الحق ، ولو قيد شعرة . . . إذن فلا وفاق بين الأديب والأحياء .. ؟ نعم ولو أصبحت هذه الدنيا وفاق حلم الأديب ، ودنياه المثالية ، فالخيال لا يزال يبدع والجمال فى هذه النفوس لا يحد . . .

وما هذه المصانعة التى تبدو من جانب الأدباء للحياة فى بعض الأحايين والتى يخيل إليهم فيها أنهم أصبحوا يتلقون الحياة كما يتلقاها الآخرون — « بلا تذمر ولا سخط » إلا مخادعة النفس ، وإلهائها عن آلامها الرفيعة التى تحزّ فيها ؛ هى قطعة الحلوى تقدمها للطفل لنسكته عن الصراخ

كيف يكون على وفاق هذا السابق السابق مع القعد المتخاف ؟ فالأدباء فى كل أمة هم رواد النهضات . يشيرون إلى العالم البعيد المجهول الممتلئة به أفكارهم ، الآخذ عليهم مسارب نفوسهم ، وخنى أشواقهم . كلُّ نهضة كان يسبقها أديبٌ أو أكثر ، يبشر أن فجر الحق قريبٌ ورائع ، وأن هناك فى ضمير الغيب دنيا أمتع من هذه وأحلى . . .

. . ؛ والآن هل استطاع المازنى — أن يلقى الحياة ، كما يلقاها الغير ، أبناؤها ؟ أما هو فيكاد يقول نعم ، أو قد قالها بالفعل ، بعد أن أزاح من فكره — حب الولع بالخلود — والحمد لله . أما نحن جمهرة القراء فنقول لا ، ونعدّ بها أصواتنا

كيف يلقى الناس الحياة ؟ إنهم ينسابون فى غمارها ، يندفعون فى لجتها — كما تندفع أنت يا أستاذ بالذات — حذو القذة بالقذة ، ولكن تمرُّ الشهور ، وتتصرم السنون ، وينتهى العمر ، وهم لا يفطنون لذواتهم ، ولا يعرفون عن هذا السرور شيئاً ، كيف جاء ، وكيف راح ؟ تلك قضية لادخل لهم فيها . حسبهم أنهم مسرورون وكفى ؛ أما هؤلاء الذين يلقون أنفسهم بالسرور إلقاء ، ثم يقفون عند كل شوط ، ليسائلوا أنفسهم هل سروا حقاً ؟ هل استطاعوا أن يغرقوا ذواتهم المضطربة ، ويسكتوها ولو دقيقة واحدة ؟ فهؤلاء بعيدون عن السرور ، وأحرى أن يتقلب بهم هذا السرور إلى شر ، أو يزيدهم شراً . ، إنهم يحتسون من خمرة الخيام تلك التى اتخذها ليغرق فى أكوابها صحوه وعقله

وإذا ما التوت الحياة وتعقدت ، وكان ضيقها لا ينفرج ، وعقدتها لا تحل ، إلا فى نحر الوفاء ، وتضحية الصدق ، فما عسى يصنع الأديب ؟ أما ابن الحياة فينحر هذه غير آسف ، بل هو ينحرها دون أن يعلم ، ولو توصلاً « إلى ترفيع درجة إن كان موظفاً » ... فهل يستطيع الأديب ذلك ؟ وماذا يصنع بهذا الضمير وهذه المثل التى لا حياة له إلا بها ؟ إنه خليق أن يجن ان فعلها . . .

نعود فنستميح — أديبنا المازنى — عذراً ، فما أراد كل هذا ، وإنما أراد أن يوهم نفسه ساعة واحدة أنه أصبح كسائر الناس ، يسر بما يسرون ويضحك كما يضحكون . وقديماً قال :

يا صدى إن بقلبى لكلوماً وهموماً ... مدرجات فيه لكن لا تموت
كلما قلت قضت رهن السكوت ... صحن بى من كل فج يتراءى
عم مساء

أما هذا الرفيق المخالف الذى يتمناه للأديب ، فما إخال الأحياء مع الأديب إلا إياه ، وما أظن الدنيا تتعدى أن تكونه ، فحسبه هذا . . .

(شرق الأردن) عبد الحليم عباس

٩ - تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن محمد حبشى

الفصــــل الثانى

لم ينس العرب هذه الحوادث فبعثت فيهم الكبرياء القوى ، فقالوا إن الجيوش الرومانية سارت ذات مرة — على أية حال — تحت لواء أميرة عربية ، ولكن القصة — كما نستدل من أخبارهم — ذات صلة قليلة بالواقع ، ولم يقتصر التغيير على اسماء الأشخاص والأماكن فحسب ، (كما حدث فى اختلاط اسم زينوبيا باسم وزيرها زبدى) بل إن الوضع التاريخى قد أصبح مستحيلاً على التمييز . وكل ما بقى لا يتعدى قصة من قصص المخاطرات التى كان عرب الجاهلية يميلون الى سماعها ، وكما هو الحال اليوم فى أبنائهم المحدثين الذين لا يملون سماع قصة عنتر أو ألف ليلة وليلة

ويقال إن أول ملك من العرب الذين استقروا فى العراق[١] هو مالك الأزدى الذى رمى بقوس من يد ابنه سليمان وقبل أن يسلم الروح قال بيتاً راح فيما بعد مضرب المثل :

أعلمه الرماية كل يوم ... فلما استد ساعده رمانى

وقد وحد مملكة مالك — إذا جاز أن توصف بهذا اللقب — ونظم أمورها ابنه جذيمة الأبرش (وهو تصحيف أدبى لكلمة أبرص) ، الذى حكم كتابع لأردشير بابكان (٢٢٦ م) مؤسس الدولة الساسانية فى فارس ، التى استمرت مسيطرة على عرب العراق طول فترة ما قبل الاسلام ، وإن جذيمة هذا لبطل كثير من الخرافات والأمثال ، وكان من كبريائه — كما يقال — إنه لم يكن ليسمح لأحد ما بمجالسته ومنادمته سوى نجمين يسميان بالفرقدين ، فاذا ما عاقر الحان صب لكل منهما كأساً ، وقد علقت أخته بوصيف له يدعى « عديا بن نصر » ، وفى لحظة لعبت الخمر برأس جذيمة رضى بزواجها إياه ، فبنى عدى بهـا ؛ وفى الصباح ، عندما عاد أخوها إلى رشده ، وثاب الى صوابه تميز من الغيظ من تلك الخديعة التى جازت عليه فأطاح رأس الزوج المسكين ، وأرغم أخته أن تتزوج من عبد حقير ، ومع ذلك فلما وضعت غلاماً تبناه جذيمة وكلأه بعطفه وحدبه ؛ واختفى الشاب عمرو ذات يوم فجأة ويئس الجميع من وجوده ، وانقضى زمن طويل لم يعثر أحد فيه له على أثر حتى صادفه أخوان : هما مالك وعقيل ، وقد وجداه عرياناً متوحشاً يهيم على وجهه ، فأتيا به وألبساه ومثلا به أمام الملك الذى غلب عليه السرور فوعدهما ألا يرد لهما طلبة يسألانه إياها ، فاختارا الشرف الذى لم يجرؤ على طلبه إنسان قبلهما قط : وهو أن يكونا نديميه ، وعرفا فيما بعد باسم « ندمانى جذيمة »

وكان جذيمة هذا أميراً مفكراً شجاعاً ، وفى إحدى حملاته ذبح عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة ، وهو رئيس عشيرة عربية كان قد ضم جزءاً من سورية الشرقية وأرض الجزيرة إلى نفوذه ، والذى يتضح لنا أنه (كما هو ظاهر من اسم أذينة) كان بعينه أذينة زوج زينوبيا ، يؤيد هذا الرأى ما قاله ابن قتيبة « وخطب جذيمة الزباء ، وكانت بنت ملك الجزيرة وملكت بعد زوجها[١] » وطبقاً لما رواه المؤرخون المسلمون ، فقد كانت الزباء ابنة عمرو بن ظرب ، واختيرت لتكون خليفته ، بعد ترديته فى ساحة القتال ، ومهما يكن هذا الأمر فقد برهنت على أنها امرأة نادرة الشجاعة ذات عزم جبار ، ولكى تأمن شر الغارات شيدت حصنين قويين على شاطىء الفرات جمعت بينهما نفقاً ، وأقامت هى فى أحدهما وسكنت أختها زينب فى الآخر ، فلما اجتمع لها أمرها واستحكم ملكها أجمعت على غزو جذيمة ثائرة لأبيها فكتبت تقول له إنها قد رغبت فى صلة بلدها ببلده ، وإنها فى ضعف من سلطانها وقلة ضبط لملكتها وإنها لم تجد كفؤاً غيره ، وتسأله الاقبال عليها وجمع ملكيهما إلى ملكه ، فلما وصل ذلك إليه استخفه الطرب ولم ينتصح برأى مشيره ، فقال له قصير يرشده فى طريقه « انصرف ودمك فى وجهك » حتى إذا شارف مدينتها قال لقصير : « ما الرأى » قال : « ببقة تركت الرأى »

(٢) هؤلاء هم نفس بدو عرب تنوخ الذين صاروا فيما بعد سكان الحيرة كما سيمر بك

(١) Brünnow : Chrestomathie aus Arabischen Prosas - chriftstellen, P.29

فراحت مثلاً ، ثم استقبله رسلها بالهدايا والالطاف فقال : « ياقصير كيف ترى ؟ » قال : « خطر يسير فى خطب كبير ، وستلقاك الخيول ، فأن سارت أمامك فالمرأة صادقة ، وإن أخذت فى جنبيك وأحاطت بك فالقوم غادرون ، اركب العصا (أى فرسه) فانها لا تدرك ولا تسبق قبل أن يحولوا بينك وبين جنودك » فلم يفعل ، ولما أحيط بجذيمة التفت فرأى قصيراً على فرسه العصا ، وقد بعدت ثلاثين ميلاً ، وأدخل جذيمة على الزباء ، ثم أمرت جواريها أن يقطعن رواهشه فى طست من ذهب وقالت : « يا جذيمة لا يضيعن من دمك شيء فأنما أريده للخبل » ، ثم سقطت نقطة من دمه على اسطوانة رخام ومات

ومضى قصير الى عمرو بن عدى وطلب إليه أن يثأر لخاله ، فقال عمرو : « كيف وهى أمنع من عقاب الجو » ، فجدع قصير أنفه وأذنه ودخل على الزباء ، وأخبرها أن عمراً لاحق به لقتله جزاء خيانته فصدقته وأعطته مالاً للتجارة ، فأتى بيت مال الحيرة فأخذ منه بأمر عدى ما ظن أنه يرضيها ، وانصرف به إليها ، ففرحت به ، ثم قال لها يوماً : « إنه ليس من ملك ولا ملكة إلا وقد ينبغى له أن يتخذ نفقاً يهرب إليه عند حدوث حادثة يخافها » فقالت له : « قد اتخذت نفقاً تحت سريرى هذا يخرج إلى نفق تحت سرير أختى » وأرته إياه ، فأظهر لها سروره بذلك وخرج فى تجارته وعرف عمرو بن عدى ما فعله ، فركب عمرو فى ألفى دارع على ألف بعير فى الجوالق ، حتى إذا صاروا إليها تقدم قصير يسبق الابل وقال لها : « اصعدى فى حائط مدينتك فانظرى الى مالك وتقدمى الى بوابك » ، فلما دخل آخر الجمال نخس البواب عكما من الأعكام ، فأصاب خاصرة رجل فصاح ، فقال البواب : « شر والله عكمتم به فى الجواليق » فثاروا بأهل المدينة وانصرفت الزباء راجعة ، فلقيت عمرو بن عدى فمصت خاتمها ، وقالت : « بيدى لا بيد عمرو[1] »

ولقد بلغت الثقافة فى مملكتى الحيرة وغسان فى عصر ما قبل الاسلام شأواً بعيداً فى الرق وشمشمت أنوارها ، وعمّ أثرها جميع أنحاء الجزيرة العربية ، وليس من الاسراف فى القول أن نذكر فى هذا المجال تاريخ وملابسات الظروف ، التى مكنتهم من القيام بنشر الرق والحضارة [1]

فى مستهل القرن الثالث بعد الميلاد كانت هناك بعض قبائل يرجع كلها أو بعضها الى أصل يمنى ، وقد عقدت فيما بينها حلفاً وسميت فى مجموعها « بتنوخ » ، وكانت تلك القبائل تثير بين آن وآخر كثيراً من الاضطرابات ، وانتشرت فى جميع ربوع امبراطورية Arsacid ، وأغارت على العراق ، حتى ألقت عصا التسيار فى إقليم غرب الفرات الخصيب ، وبينما ظلّ بعض المغيرين يحيون حياة بدوية محضة ، اشتغل آخرون بفلاحة الأرض وزرعها ، وعلى كرّ الأيام نشأت المدن والقرى ، وكان أعظمها أهمية الحيرة (أى المعسكر) ذات الموقع الصحىّ الجميل وعلى مسيرة عدة أميال قليلة من جنوب الكوفة ، بالقرب من بابليون القديم [2] ، وطبقا لما ذكره هشام بن محمد الكلبى (+ ٨١٩ أو ٨٢١ م) المؤلف المعظم عن عصر الجاهلية ، فقد كان سكان الحيرة فى عهد أزدشير بابكان أول ملك ساسانى لفارس (٢٢٦ — ٢٤٠ م) يتكوّنون من ثلاث طوائف هى :

(١) تنوخ : وتسكن غرب الفرات بين الحيرة والأنبار فى طنب من وبر الجمال

(٢) العباد : ويسكنون البيوت فى الحيرة

(٣) الأحلاف : ولم يكونوا ينتمون الى إحدى الطائفتين

---

(١) لخصنا هذه القصة مما ورد فى الأغانى ج ١٤ ص ٧٣ س ٢٠ وراجع الطبرى ج ١ ص ٧٥٧ — ٧٦٦ ، والمسعودى فى مروج الذهب طبعة باربيه دى مينارد ج ٣ ص ١٨٩ — ١٩٩

(١) وعلى ذكر الحيرة وتاريخها يمكن القارئ مراجعة المقال الرائع الذى كتبه الدكتور G. Rothstein عن دولة اللخميين فى الحيرة : Die Dynastie der Lahkmiden in Al Hira (برلين ١٨٩٩) حيث يبين مصادر المقال (ص ٥٠ وما يليها) ، كأن ما وصفه الكتاب اليهود والبيزنطيون مما رأوه بأعينهم لثمين القيمة فى ذكرهم التسلسل التاريخى الذى يرويه المؤرخون المسلمون على سبيل الحدس ، وإن التواريخ الاسلامية عامة لتشمل فصولا بعضها خرافى عن « ملوك الحيرة وغسان » ويجب أن تتخذ الحيطة والحذر الشديدين خاصة فى الجزء الذى نقله الطبرى عن هشام بن محمد الكلبى ، والذى ترجمه نلدكه وعلق عليه فى : Geschicte der Perser und Araber zur Zeit der Sasanidsn

وقد رجع هشام إلى السجلات المحفوظة فى كنائس الحيرة ويدعى بأنه استخلصها من شروح تاريخية ، ونسبية تتعلق بأسرة اللخميين (راجع الطبرى ج ١ : ص ٧٧٠ س ٧)

(٢) الحيرة هى حيرتا السريانية ، وقد أطلق اسمها على المعسكر المتنقل من العرب والفرس ثم ظلت إشارة واسماً للمدينة العسكرية

السابقتين بل ألحقوا أنفسهم بأهل الحيرة ، وعاشوا بينهم كأنهم آبقون قتلة يلاحقهم الثأر ، أو مهاجرون معوزون يحاولون الاطمئنان على مستقبلهم

وطبيعى أن يؤثر أهل المدن الى حد بعيد فى السكان ، ولقد رأينا هشاما يسميهم « العباد » وهذا لفظ غير دقيق تماما إذ العباد عرب الحيرة المسيحيون ، وقد سموا بذلك لاعتناقهم النصرانية ، أما العرب الوثنيون الذين سكنوا الحيرة منذ أن أنشئت ، وظلوا مقيمين بها ، فلم يكونوا يدلون على نقيض المعنى المفهوم من الوثنية . أما لفظ « العباد » فيقصد به خُدَّام الله والمسيح ، ولا نستطيع أن نحدد تماماً أيان بدئ اطلاق هذا اللقب على أولئك المتدينين الذين كانوا من قبائل مختلفة ، كانت تسكن الحيرة أثناء القرن السادس ، وليست التواريخ ذات قيمة كبيرة نسبياً ، بيد أن الأمر الذى تجب الاشارة اليه ، هو وجود جماعة عربية فى فترة ما قبل الاسلام لم تكن قائمة على صلات الدم أو تجمعها العصبية ، ولكن تربطها روابط روحية أعنى بذلك الايمان العام . أما ثقافة وديانة « العباد » فقد تسربتا الى أقصى الأماكن والجهات النائية المنعزلة فى شبه جزيرة العرب كما سترى ذلك مفصلاً فى مكانه الخاص ، وكان هؤلاء أساتذة العرب الوثنيين الذين قليلاً ما كانوا يقرأون أو يكتبون كما كانوا عازفين عن التعلم فخورين بجهلهم بالتهذيب الذى يرون فيه نوعاً من المذلة ، ومع ذلك نرى أن أرقى العقول ثقافة بين البدو كانت مجذوبة بلا نزاع الى الحيرة ، ولقد وجد شعراء هاتيك الأيام فى الأمراء خير مشجع ، فزار كثير من شعراء الجاهلية بلاط اللخميين كما اتخذها بعضهم كالنابغة الذبيانى وعبيد بن الأبرص دار اقامة

وليس من المهم أن ندخل فى تفاصيل غير مجدية كأصل ونشأة دولة اللخميين فى الحيرة ، ويذكر هشام بن محمد الكلبى (١) ان أول حاكم لخمى كان يدعى « عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن لخم » وهو الذى تبنى جذيمة والذى انتقم له من الملكة الزباء ، ولسنا ندرى فى الغالب شيئاً عن خلفائه ، حتى نصل الى النعمان الأول المسمى بالأعور ، والذى كان حكمه فى الربع الأول من القرن الخامس الميلادى ، وقد اشتهر النعمان هذا بأنه بانى الخورنق ، وهو قصر فخم بقرب الحيرة بناه فى عصر الملك الساسانى يزدجرد الأول الذى أراد مسكناً صحياً لابنه الأمير بهرام جور ، وعند اتمامه أمر النعمان بأن يلقى مهندسه الرومانى سنمار من شاهق البنيان ، إما لافتخاره بأنه كان يستطيع إقامته بناء عجيباً يدور مع الشمس حيث دارت ، أو خوفاً من أن يذيع مكان حجر خاص اذ أزيح من مكانه انهار البناء كله . وفى صباح يوم من أيام الربيع أخذ النعمان مجلسه فى الخورنق مع وزيره ، وأشرف على النجف وحدائقها وما فيها من نخيل وعيون ، وأدار بصره فى جميع النواحى شرقاً وغرباً ، فلما امتلأت نفسه بسحر ما رأى قال لوزيره :

— أرأيت مثل هذا ؟

— كلا . ولكن لو دام !

— وما الذى يخلد ؟

— ما عند الله فى السموات

فسأله النعمان : كيف يتوصل المرء إلى ذلك ؟ فأجابه الوزير : بالعزوف عن الدنيا والتفانى فى خدمة الآله ، والكفاح من أجله . ويقال إن النعمان آلى على نفسه حينئذ أن يهجر مملكته ، حتى اذا ما أقبل الليل تدثر بثوب خشن ، وتسلل فى جنح الظلام ، وساح فى الأرض فلم يره أحد بعد ذلك ؛ ويظهر أن هذه الأسطورة قد تبلورت وتضخمت من هذه الأبيات التى نظمها عدى بن زيد العبادى :

وتدبر ربُّ الخورنق إذ أشـ	ـرف يوماً وللهدى تفكيرُ
سره حاله وكثرة ما يمـ	ـلك والبحرُ معرضاً والسدير
فارعوى قلبه فقال : «وما غبـ	ـطة حى الى المات يصيرُ ؟
ثم بعد الفلاحِ والملك والامَّـ	ـة وارتهمُ هناك القبور
ثم أضحوا كأنهم ورق جف (م)	فألوت به الصبا والدبور (١)

أما ما يراه جمهرة مؤلفى العرب من اعتناق النعمان المسيحية فليس له أساس من الصحة ، وإن كان هناك ما يبعث على الاعتقاد بأنه كان ميالاً إليها ، إذ كانت الحرية الدينية مطلقة لرعاياه المسيحيين ، كما ورد ذكر حبر مسيحى بالحيرة سنة ٤١٠ م

(يتبع) ترجمة حسن حبشى

(١) ذكر هشام بن محمد الكلبى أسماء عشرين ملكا حكموا مدة ٥٢٢ عاما وثمانية أشهر

(١) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى ، والطبرى ج ١ ص ٨٥٨

٦ ــ هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الملذات والشهوات

اذا كان لك فضيلة يا أخى ، وكانت هذه الفضيلة خاصة بك فأنك لا تشارك فيها أحداً سواك . ولا ريب فى أنك تريد أن تدعوها باسمها وتداعبها لتتسلى بها ، ولكنك بهذا أشركت بها الناس بما أطلقت عليها من تعريف ، فأصبحت أنت وفضيلتك مندغمين فى القطيع

خير لك يا أخى أن تقول : إن ما تلذ به روحى وتتعذب به يتعالى عن الايضاح ، ويجل عن أن يسمى ، وهذا العجز عن ادراكه يخلق المجاعة فى أحشائى

لتكن فضيلتك أسمى من أن تستخف بالأشياء عند تحديدها ، وإذا ما اقتحمت هذا التحديد ، فلا تستحى من أن تتلفظ به تمتمة ، فقل وأنت تتمتم :

— إن هذا هو خيرى الذى أحب ، إن هذا ما يثير إعجابى ، فأنا لا أريد الخير إلا على هذه الصورة . لا أريد هذه الأشياء تبعاً لارادة ربٍّ من الأرباب ولا عملاً بوصية أو ضرورة بشرية ، فأنا لا أريد أن يكون لى دليلٌ يهديني إلى عوالم عليا وجنات خلود . . .

قل : ما أحب سوى فضيلة هذه الأرض ، لأن ما فيها من الحكمة قليل ، وأقل منه ما فيها من صواب متفق عليه . إن هذا الطير قد بنى عشه على مقربة منى ، لذلك أحببته وعطفت عليه ، وها هو ذا الآن يحتضن عندى بيضه الذهبى

على هذه الوتيرة تكلم وأنت تتمتم ممتدحاً فضيلتك

لقد كان لك فيما مضى شهوات كنت تحسبها شروراً ، أما الآن فليس فيك إلا الفضائل ، وقد نشأت هذه الفضائل من شهواتك نفسها ، لأنك وضعت فى هذه الشهوات أسمى مقاصدك فتحولت فيك إلى فضائل وملذات هى منك ولك ، ولسوف ترى جميع شهواتك تستحيل إلى فضائل ، ولسوف ترى كل شيطان فيك يستحيل ملاكاً حتى ولو كنت ممن يستسلمون للغيظ والشهوات وكنت من فئة الحاقدين المتعصبين

لقد كانت الكلاب المفترسة تسكن دهاليزك من قبل ، فما هى ذى الآن أطيار مغرّدة . لقد استقطرت بلسماً من سمومك وحلبت ناقة الأوصاب ، وأنت الآن تكرع لذيذ دَرِّها

لن يخلق شرٌّ منك بعد الآن ؛ غير أن هنالك شراً قد ينشأ من تخاصم فضائلك . فاصغ إلىّ ، يا أخى ! إنك إذا شعرت بسعادة فما يكون ذلك إلا لفضيلة مستقرة فيك وهى تسهّل اجتياز الصراط عليك

إنها لمزية أن تكون للانسان فضائل عديدة ، غير أن تعدّد الفضائل يرمى بالانسان إلى أشق الحظوظ . وكم من مجاهدٍ أرهقه النزال فى ساحات الفضائل فتوارى لينتحر فى الصحراء

إذا كنت ترى المعارك والحروب شروراً ، فاعلم يا أخى أنها شرور لابد منها ، لأن للحسد والريبة والشتيمة مقامها المحترم بين فضائلك نفسها . تبصر ترَ أن كلا من فضائلك تطمح إلى المقام الأسمى وتطمع فى الاستيلاء على جميع أفكارك لتستعبدها وتحصر بها وحدها كل ما فى غضبك وبغضائك وحبك من قوة

إن كلا من فضائلك تحسد الأخرى ، والحسد هائل مريع يتناول الفضائل أيضاً فيبيدها

إن من يحيط به لهيب الحسد تنتهى به الحال إلى ما تنتهى العقرب اليه فيوجه حمته المسمومة إلى نحره

أفما رأيت ، يا أخى ، من الفضائل من تشتم نفسها وتنتحر ؟

ليس الانسان إلا كائناً وجب عليه أن يتفوق على نفسه ، لذلك حقٌّ عليك ، يا أخى ، أن تحب فضائلك لأنك بها ستفنى

هكذا تكلم زارا . . .

المجرم الشاحب

أفما تريدون أن تنزلوا القصاص ، أيها القضاة والمضحون ، مالم يهز الحيوان رأسه ؟ إليكم رأس المجرم الشاحب ، إنها لترتعش ؛ وها ان أفظع احتقار يتكلم فى نظراته

إن عيني المجرم تقولان لكم ما الشخصية إلا شيء وجب علينا أن نتسامى فوقه ؛ وما شخصيتي إلا عظيم احتقاري للبشر

لقد انتهى أجل هذا المجرم عند ما أصدر حكمه على نفسه ؛ فلا تتركوا للتسامي سبيلاً يندفع منه إلى الانحطاط . عاجلوه بالموت فهو المنفذ الوحيد لمن بلغ عذابه بنفسه هذا الحد البعيد

ليكن قصاصكم ، أيها القضاة رحمة لا انتقاماً . وإذا ما حكمتم بالموت فلتكن غايتكم تبرير الحياة . لا يكفيكم أن تقيموا السلم بينكم وبين من تقتلون ، بل يجب أن يكون حزنكم تعبيراً عن ولهكم بالانسان الكامل . وهكذا تبررون الاستبقاء على أنفسكم

قولوا إن هذا الرجل عدوٌ ولا تقولوا إنه سافلٌ . صفوه بالمرض لا بالدناءة . اعتبروه مختلاً لا مجرماً . وأنت أيها القاضي لو أنك تعلن للملأ ، وأنت في برودك الحمراء ، ما ارتكبت من مآتٍ في تفكيرك ، لكنت تسمع الناس يهتفون قائلين : اخلعوا هذا الرجل عن كرسيه فهو ممتلىء أقذاراً وسموماً

ولكن الفكرة شيءٌ والعمل شيءٌ آخر ، كما أن شبح العمل شيءٌ مستقل بنفسه أيضاً . فليس بين هذه الأشياء الثلاثة أية علاقة يصح أن تعتبر علاقة العلة بالمعلول

إن شبح الجريمة كان صورة لاحت لهذا الرجل فملأ وجهه الاصفرار ، لانه عندما ارتكب جرمه كانت قوته على مستواها ، ولكنه ما أتم الجرم حتى وهنت تلك القوة فلم يستطع أن يتفرّس في شبح جرمه

لقد لاح لهذا الرجل أنه ارتكب فعلة واحدة لا غير ، وبذلك يقوم جنونه لأن الشواذ تحوّل إلى قاعدة في كيانه . إن الدائرة التي يرسم خطها المجرم هي قيد الأفكار ، إذ يصبح كالفرخة يرسم النومُ حولها دائرة فلا تستطيع اجتياز خطها . وهكذا لا يكاد المجرم يخرج من جرمه حتى يدخل في دائرة جنونه

اصغوا إليّ ، أيها القضاة ؛ إن الجنون الذي يتلو العمل إنما تقدّمه جنونٌ آخر قبله ؛ وانتم لم تسبروا روح المجرم إلى أقصاها

إن القاضي الأحمر يتساءل عن سبب إقدام المجرم على القتل ، فيقول في نفسه إن القاتل أراد السرقة أولاً ، أما أنا فأقول إن نفس المجرم لم تقصد السرقة بل طلبت إراقة الدماء ، لأنها كانت ظامئة إلى إغماد النصل . ان عقلية المجرم لم تفهم هذا الجنون فاندفع الى ارتكاب جرمه ، وعقليته تناجيه قائلة : ما يهمك أن تريق الدماء ما دام جرمك يوصلك الى السرقة أو الانتقام . لقد أصغى المجرم الى صوت عقليته المسكينة لان ما أسرّت به اليه كان ثقيلاً كالرصاص ، فسرق بعد أن قتل لأنه أراد أن يبرّر جنونه ولا يخجل منه

وعاد جرمه فثقل عليه كالرصاص أيضاً ، فثقل عقله المسكين فاستولى عليه التخدّر والشلل . ولو أن هذا المجرم تمكّن من أن ينتفض بهامته لكان تهاوى حمله الثقيل عنه ، ولكن من كان سيهزّ له رأسه يا ترى ؟

لو أنك أنعمت النظر في هذا الانسان ، لما تجلّى لك إلا مجموعة علل تتطلع بالعقل الى العالم الخارجي مفتشة عن غنيمة تظفر بها

ليس هذا الانسان الا كتلة أفاع اشتبكت وهي في تدافع مستمر لا تستكن الا لتتفكك منسابة في شعاب الدنيا تسعى وراء غنائمها

أنظروا الى هذا الجسم المسكين ! إن روحه الضعيفة طمحت الى استكناه ما في الجسم من ألم ورغبات ، فخيّل لها أنها متشوقة الى القتل

إن من يتسلط عليه هذا المرض في هذه الأيام لتباغته شرورها فيريد أن يعذب الآخرين بما يتعذب هو به ؛ غير أنه قد مرّ زمان من قبل كان له خير وشر ، هما غير خير هذه الأيام وشرها . ذلك زمان كانت تحتسب فيه شكوك الانسان ومطامعه جرائم عليه ، فكان المبتلى بالشكوك والمطامع يعدّ ساخراً ومنشقاً عن المجتمع فيعمد هو إلى تعذيب الآخرين بعذابه

إنكم لا تريدون الاصغاء إلى أقوالي إذ ترونها تلحق الضرر بالصالحين بينكم ، ولكنني لا أقيم وزناً لرجالكم الصالحين

إن في هؤلاء الرجال من تشمئز منه نفسي ؛ وليس ما أكره فيهم ما يُعدّ من الشرور ، فانني أتمنى لهم جنوناً يوردهم الردى كجنون المجرم الشاحب

والحق أنني أريد أن يدعى هذا الجنون حقيقة أو إخلاصاً أو عدلاً ، لأن فضيلة هؤلاء الناس لا تقوم إلا على إطالة عمرهم لقضائه باللذّات السافلة ولا ملذّة لهم إلا بالارتياح إلى نفوسهم والرضى عنها

ما أنا إلا حاجز قائم على ضفة النهر ، فمن له قدرة على التمسك بي فليفعل ، ومن لا طاقة له على ذلك فلا يظن أني سأكون في يده يقبض على كما يقبض الكسيح على عصاه

هكذا تكلم زارا ...

القراءة والكتابة

إنني أستعرض جميع ما كُتب ، فلا تميل نفسي إلا إلى ما كتبه الانسان بقطرات دمه . اكتب بدمك فتعلم حينئذ أن الدم روح ، وليس بالسهل أن يفهم الانسان دماً غريباً .

إنني أبغض كلّ قارئٍ كسول لأن من يقرأ لا يخدم القراءة بشيء ، وإذا مرّ قرن آخر على طغمة القارئين فلا بد من أن تتصاعد روائح النتن من التفكير

إذا أعطى لكل إنسان الحق في أن يتعلم القراءة ، فان تفسد الكتابة مع مرور الزمان فحسب ، بل إن الفكر نفسه سيفسد أيضا

لقد كان الفكر فيما مضى إلهاً فتحوّل إلى رجل ؛ وها هوذا الآن كتلة من الغوغاء . إن من يكتب سُوَراً بدمه لا يريد أن تتلى تلك السور تلاوة ، بل يريد أن تستظهرها القلوب

إن أقرب الطرق بين الجبال إنما هو الخط الممتد من ذروة إلى ذروة ، ولا يمكنك أن تتبع هذا السبيل إذ لم تكن لك رجلا مارد . يجب أن تكون التعاليم شامخة كهذه الذرى ، وأن يكون لمن تلقن لهم قوة الجبابرة وعظمتهم

لقد رقّ النسيم وصفا ، وهذه المخاطر تحدق بي عن كثب ، وفكرتي تتخطر مرحة في قسوتها ؛ أمامي الصراط الممهد فلأتخذنّ من الجن أتباعا . أنا ربّ الجسارة والعزم ؛ ومن توصل بأقدامه الى طرد الأشباح لا يصعب عليه أن يخلق من الجنّ له أتباعا

لقد تاقت شجاعتي الى الضحك ، وقد انقطع كل حبل بيني وبينكم . إن السحب المتمخضة بالعواصف لهي سحبكم السوداء الثقيلة وأنا أهزأ الآن بها

إنكم تنظرون الى ما فوقكم عند ما تتشوقون الى الاعتلاء ، أما أنا فقد علوت حتى أصبحت أتطلع الى ما تحت أقدامي . فهل بينكم من يمكنه أن يضحك وهو واقف على الذرى

من يحوّمْ فوق أعالي الجبال يستهزيء بجميع مآسي الحياة ، ويستهزيء بمسارحها ، بل بالحياة نفسها

تريدنا الحكمة شجعانا لا نبالي بشيء ، تريدنا أشداء مستهزئين ، لأن الحكمة أنثى ، ولا تحب الأنثى إلا الرجل المكافح الصلب

تقولون لي إن الحياة وقر ثقيل ، فقولوا لي أيضا لماذا تقابلون الصباح بغروركم ، ثم يجيء المساء فلا يجد فيكم إلا الذلة والخضوع ؟

إن الحياة جدّ ثقيلة ، ولكن ما هذا الخورُ الذي يبدو عليكم ؟ أفلسنا كلنا دواب ولكل دابّة منا وِقرُها ؟ وهل من شبه بيننا وبين برعم الورد ، يرتجف متضايقا لسقوط قطرة الندى عليه !

لاريب أننا نحب الحياة ، وليس سبب ذلك لأننا تعودناها ، بل السبب في أننا تعوّدنا حب الحياة

إن في الحب شيئا من الجنون ، ولكن في الجنون شيئا من الحكمة . وأنا نفسي التائق الى الحياة يتراءى لي أن خيرَ من يدرك السعادة إنما هي الفراشات وكرات الصابون الفارغة ، ومن يشبهها من الناس . ولا شيء يبكي زارا ويدفعه الى الأنشاد كنظره الى هذه الأرواح الصغيرة الخفيفة الرائعة الدائمة الخفقان في جنونها

إن الاله الذي يمكنني أن أومن به إنما هو الاله الذي يمكنه أن يرقص

عند ما تراءى لي الشيطان رأيته جامداً مستغرقاً ماؤه الجد والجلال ، فقلت هذا هو الروح الثقيل الذي تتساوى جميع الحالات لديه

إذا أردت القتل فلا تستعن بالغضب ، بل استعن بالضحك . فهيّا بنا نقتل الروح الثقيل

إنني ما زلت راكضا منذ تعلمت المشي . وهأنذا أطير الآن ولست بحاجة الى من يدفعني لأتحرك

لقد أصبحت خفيفاً ، فأنا أطير مشعرا بأنني أحلق فوق ذاتي وأن إلهاً يرقص في داخلي

هكذا تكلم زارا . . .

(يتبع) فليكس فارس

مشرقيات

فى الأدب العربى الحديث

للأستاذ أغناطيوس كراتشقويفسكى

الأستاذ بجامعة لينتجراد

بقية ما نشر فى الأعداد السابقة

إن مسألة لغة الحوار فى التأليف المسرحى قد تبدو ذات أهمية أكثر منها فى عالم القصة . ويستدل من الاتجاه السائد أن اللغة العربية الفصحى احتفظت حتى الآن بقواعدها ، لكن هناك محاولات جديرة بالاهتمام ، مشبعة بروح متناقضة . ولنذكر منها محاورات جلال وتيمور . وكثيرا ما ظهرت مؤلفات نظرية تشير الى ضرورة انتهاج تقاليد أدبية ثابتة . بل إنه قام جدال قلمى حاد فى سوريا ، عند ظهور مؤلفات مارون غصن ، (المولود فى سنة ١٨٨١) ، فالموضوع يثير اهتمام الباحث المدقق ، لكن حله ليس من السهولة بمكان

ومما تجدر ملاحظته أن القصصى محمود تيمور ، الذى كان يكثر من استعمال العامية فى الطبعات الأولى من مؤلفاته ، عاد يكتب بعدئذ بلغة هى أقرب الى الفصحى ، وذلك على الرغم من أنه — نظريا — يتنبأ بمستقبل العامية المصرية ويدافع عنها

وفى مؤلفات توفيق الحكيم المسرحية ، نراه يجمع بمهارة بين اللهجة العامية فى الحوار وبين اللغة الفصحى عند ما يدون ملاحظاته أو وصفه . وقد دلت التجارب العملية على أن هذا الحل هو خير الحلول الوسطى فى الوقت الحاضر

د — أنواع أخرى

إن تاريخ تقدم الأدب العربى الجديد محاط ببعض الظروف الخاصة التى تضطرنا الى الولوج فى بعض أنواع قد تترك جانباً إذا أثير البحث حول ما اتفق على تسميته «الأدب» . مثال ذلك الصحافة ، فقد لعبت بأسرها دوراً من المرتبة الأولى فى الأهمية ، إذ كانت مدرسة لا للقراء فحسب ، بل وللكتاب أنفسهم ، فكان ما ينشره الكتاب من المقالات فى الصحف يساعدهم على تحسين أسلوبهم شيئاً فشيئاً ، وذلك يؤثر فى كتابتهم عند ما يتناولون الأنواع الأخرى

وأشد هذه الأنواع تأثراً : النثر الخطابى (السياسى وغيره) وهكذا نشأت أبحاث فى النقد وتاريخ الأدب ، ورسائل أدبية مختلفة ، تذوقها الجمهور ، إذ وصلت فى أسلوبها الى مرتبة الشعر المنثور . وسار هذا الأسلوب الخاص بالصحف والمجلات والرسائل سريعا فى طريق التقدم . نعم ، إن القرن التاسع عشر لم ينتج شيئا جديرا بالاهتمام ، لكننا لا نستطيع أن ننكر أثر البستانى ونشراته الدورية العديدة . وقد تخرج فى تلك المدرسة عدد كبير من الصحفيين أمثال أديب اسحق ، الخطيب الملتهب حماسة ، ونجيب حداد الذى اتجهت ميوله الى الجدل الفلسفى

وكان للهجرة الى أوربا بعض الشىء من الأهمية ، إذ أنجبت شخصيات فذة عديدة ، مثل الشدياق وخصمه رزق الله حسون المتوفى فى سنة ١٨٨٠ ، ورشيد الدحداح الذى امتاز بما نشره من المؤلفات القديمة (١٨١٣ — ١٨٨٩) . وفى خلال المدة من سنة ١٨٨٠ الى ١٨٩٠ اجتازت مصر نقطة من أدق النقط فى تاريخها . فعلى أثر نشوب الثورة العرابية بدت فى الأفق شخصية عبد الله نديم (١٨٤٤ — ١٨٩٦) الذى أخذ يعالج فى صحف عدة المسائل الاجتماعية والسياسية بأسلوب لاذع وفى لغة الكلام العادية . ومثله يعقوب صنوع (١٨٣٩ — ١٩١٢) المعروف باسم الشيخ أبو نضارة والذى أقام فترة طويلة فى فرنسا . أما عبد الرحمن الكواكبى (١٨٤٩ — ١٩٠٣) فكان فى شبه عزلة عن كتاب عصره . كان الكواكبى رحالة ثائراً ، يحلم بالجامعة الاسلامية ، وقد أنشأ فى كتابه « أم القرى » فكرة خيالية رائعة عن مؤتمر الاتحاد الاسلامى بمكة المكرمة

فى خلال تلك المدة ، أخذت مدرسة الشيخ محمد عبده تنمو وتقوى . ومن الذين تخرجوا فى تلك المدرسة سعد زغلول (١٨٥٩ — ١٩٢٧) أشهر خطيب سياسى فى مصر الحديثة ، فلم يكن له نظير فى مستهل القرن العشرين سوى مصطفى كامل (١٨٧٤ — ١٩٠٨) مؤسس الحزب الوطنى . أما الذين خلفوا

الشيخ عبده مباشرة ، فقد وقفت جهودهم عند أبحاث إسلامية بحتة فى التفسير وفى الدفاع عن الاسلام ، ولم تحدث أى أثر واقع فى الحركة الأدبية . وهذه الملاحظه تنطبق على أمثال محمد رشيد رضا ، وهو أدقهم محافظة وأشهرهم . ومحمد فريد وجدى (المولود فى سنة ١٨٧٥) ، وهو أكثرهم تشبعاً بالروح العصرية

وفاقت شهرة على يوسف (١٨٦٣ — ١٩١٣) — منشىء « المؤيد » — فى عالم الصحافة شهرته فى أى ميدان آخر . ولا يزال الأمير الدرزى شكيب أرسلان نزيل أوربا منذ سنوات ، يشغل المقام الأول . واستأنفت المدرسة الصحفية السورية تقاليدها فى مصر ، بفضل يعقوب صروف (١٨٥٢ — ١٩٢٥) صاحب المقتطف ، وسليمان البستانى (١٨٥٦ — ١٩٢٥) الرحالة النابه ، ومترجم الالياذة ، وقد كتب عن تركيا مؤلفاً جاء فيه بأحسن الأوصاف عن حالة العرب الاجتماعيـة قبل الحرب العظمى . وللأسلوب العلمى الفلسفى الذى امتاز به البستانى نقيضه فيما كتبه ولى الدين يكن (١٨٧٣ — ١٩٢١) من مقالات ورسائل ، وقصائد

كان ولى الدين من أشد أنصار التقرب من الأتراك والعرب ، فراح يصنف بعبارات تلتهب حمية وحماسة ، وفى صور مؤثرة أيام أسره فى استامبول فى عهد السلطان عبد الحميد ، وما شاهده من المفارقات الاجتماعية فى تركيا

وامتاز مصطفى لطفى المنفلوطى — وهو أصغر تلاميذ الشيخ عبده سناً — بما بذله من الجهود الموفقة لابتكار أسلوب جديد شائق ، ويمكننا أن نقول إنه نجح نجاحا كبيراً عن جدارة واستحقاق . أما البحث فيما إذا كانت المؤلفات العديدة التى نقلها بتصرف عن أصلها الأوربى قد أفادت القراء من حيث فهمها على حقيقتها ، فهذا موضوع بحث آخر

وأظهرت المدرسة السورية ميلاً خاصاً إلى الرسائل والشعر المنثور . ويعتبر أمين الريحانى مبتكر هذين النوعين ، وهو كاتب معروف ، حائز حسن التقدير . وكان أول من رفع فن الرسائل والشعر المنثور إلى المكانة الأولى وضمن لهما شهرة ذائعة ، وقد ظل مخلصاً لفنه ، كما هو واضح فى مؤلفاته الأخيرة . ومثله جبران خليل جبران ، فانه تفرغ إلى هذين النوعين ، بل إن جل مؤلفاته دواوين من الشعر المنثور أو رسائل تحوم حول نظرية خاصة أو فكرة مركزية . ثم سارت المدرسة السورية المتأمركة فى طريق التنويع (مثال ذلك : ميخائيل نعيمة) لكن الأفضلية ظلت للرسائل والشعر المنثور . وهذه الرسائل ، مع اختلاف مضمونها ، تعد أهم مميزات المدرسة الحديثة ، وإن كانت فى مصر توجه عناية واهتماماً خاصاً إلى مسائل تاريخ الأدب ، والفلسفة ، والاجتماع

ومن الأمور الغريبة الجديرة بالملاحظة أن كتب رواد هذه المدرسة (كمنصور فهمى والعقاد وهيكل والمازنى وسلامة موسى) إن هى إلا مقالات سبق أن نشرت على صفحات المجلات والصحف اليومية ، وهو دليل على حيوية هذا النوع ، بل برهان ساطع على الأثر القوى الذى تركته الصحافة الدورية بالنسبة لتقدم الأدب

ترجمة محمد أمين حسونة

من ذكريات رحلة الجامعة المصرية الى أوربا

زاكــــوبانا ZAKOPANE

مدينة الأحلام والثلج

بقلم محمد عبد الرحيم عنبر

كان فى برنامجنا الطويل أن نزور بولندا ، فوصلنا عاصمتها الجديدة « فارسوفيا » فى مساء ١٧ أغسطس الماضى ، كما كان من المقرر أن نقيم فيها ثمانية أيام ، إلا أن أموراً شاقة عرضت فجمات رئيس الرحلة يغير وجهة السير ، إذ أن شرذمة كبيرة من مهرة « النشالين اليهود » قد احتفت بمقدمنا الاحتفاء اللائق ! ومما زاد فى مضايقتنا اجراءات البوليس البولندى التى كان لها كل الفضل فى تأخير وصول حقائبنا الى « بيت الطلبة » القذر الذى هيئ لاقامتنا ! . وكان أغلبنا قد غلبه النعاس من فرط الأعياء فأسلم عينيه لسلطان الكرى ونام بيذلته نوماً هنيئاً حتى تبدت خيوط الصباح فى اليوم التالى . وفى ذلك اليوم استفحلت احتفاءات النشالين الى درجة مزعجة

فكان طبيعياً اذن أن يستقر بنا الفكر على مغادرة فارسوفيا بعد اذ جاهدنا جهاد الأبطال فى الذود عن « جيوبنا » مما محا من نفوسنا جمال كل رؤية !

وعلى رصيف المحطة حدثنى أحد الأولاد البولنديين عن هذه الظاهرة فى أسف قائلا لى : « يؤلمنا جداً أن يزعجكم أولئك النشالون الدوليون من سفلة اليهود الذين تضيق بهم بلادنا ! » فشكرته وطيبت خاطره لكى أذهب عن وجهه لمعة الخجل

وبعد سفر شاق دام عشر ساعات بالقطار بلغنا زا كوبانا . وكم كان المنظر رائعاً حين كنا نعدو سراعاً خفافاً ، كل خمسة منا فى عربة رشيقة صغيرة ذات حصان واحد ينهب الأرض نهباً ، ويطوى المسافات الطويلة صاعداً فوق صدر ربوات عاليات فى طريقنا الى فندق « مارتون Maraton » الجميل الذى يطل على قلب المدينة من فوق ارتفاع تسعمائة متر ، ارتفاع شاهق يتيح للنزل أن يدوروا بأعينهم فوق آفاق الجبال السامقة المترامية الأطراف ، ذات التيجان الثلجية ؛ أو أن يرسلوا أنظارهم بعيداً الى حيث تفترش أشعة الشمس رقع الأرض ذات الألوان الصارخة المختلفة ؛ وأينما تقع أبصارهم يشاهدوا جمالاً أخاذاً ، ويروا صوراً مختلفات من سحر الطبيعة الخالدة . فها هى ذى تلك الذرى الشاهقة — ذرى الجبال — تلتحف بأوشحة رمادية فاتنة من ضباب كثيف لا يلبث أن يستحيل رذاذا خفيفاً ثم مطراً ثقيلاً يتجمع ليفترق لينتهى الى جداول ضئيلة تتشابك أو تتشعب ، وتلتوى أو تستقيم ، وتنتهى بدورها الى مجار أوسع تعترضها صخور ضخمة ترقاها المياه بعد صراع عنيف تنبعث فى لحظات عنفوانه ألحان الانتصار وأنغام موسيقية شجية فتنة الناظرين ومرح السامعين !

وها هى ذى الغابات الكثيفة تزين كل مكان وتهز فى النفوس حنين الالتجاء الى أحضانها ، فى ظل أشجارها الباسقة ، وتحت أغصانها المتهدلة ، لقضاء ساعات طوال بين الخضرة والماء والوجه الحسن !

وههنا وهناك المنازل الخشبية الريفية على صدر الجبال وقممها أو على قلب السهول ، متقاربة حينا ومتباعدة أحيانا . وتبدو جلية طورا تحت أشعة الشمس وبين الرياض النضرة كأنما هى زهرات من بنفسج فضاح ! وشاحبة طورا بين لفائف الضباب كأنها فكرة سابحة فى خيال شاعر مفتون !

فكيف إذن لا تكون زا كوبانا مدينة الخيال والأحلام ؟

وزا كوبانا ليست مصيفاً فقط ، كأنها ليست مشتى فقط ، بل هى هما معاً . فالمعجبون بها يرحلون اليها فى الصيف كما يرحلون اليها فى الشتاء ، ويبهرهم جمالها فى الفصلين . فاذا زرتها فى الصيف فلست منتهيا من سماع وصف الشتاء حين يهبط بثلوجه فتتحول تلك البقاع الخضراء الضاحكة الى بساط فاتن من الثلج فتتبح للناس الانزواء فى منازلهم يلتمسون الدفء والراحة . وتعطى الأزواج فرصة الأوبة الى زوجاتهم مبكرين على غير العادة ! ولا يخرج إلا أولئك الراغبون فى الانزلاق على الجليد . عادة شائعة فى تلك البلاد

فاذا كان الشتاء حدثوك عن جمال الصيف وسحره . الصيف

المفتون حيث تطوى شمسه الدافئة ذلك البساط الرهيب وتدفع بأفواج الناس الى أحضان الغابات ، راجلين أو فوق ظهور الجياد . حيث تدب الحياة من جديد فى الكائنات المقرورة . حيث تلبس الطبيعة رداءها الجديد ! فالناس هناك لذلك تواقون الى الرياضة العنيفة . وتتجلى هذه الروح فى الطفل والشاب والشيخ ! فى الرجل والمرأة ! فى الفقير والغنى ! فى العاشق والخلى ! فى كل كائن حى حتى الحيوان الذليل . . .

والقوم هناك لا يألون جهدا فى توفير أسباب السعادة حيث يعيشون عيشة الفطرة وينزعون عن أجسامهم المنهكة أردية السهرات الأنيقة وملابس العمل الثقيلة . فلا كلفة ولا تصنع ولا رياء ولا حقد ولا مفاخرة كاذبة . تأويهم المدنية كلهم على السواء ، ولا تجعل لأحدهم مجال الفضل على آخر ، كأنهم أسرة واحدة يخرجون الى الشوارع « بالبيجامات » وأثواب النوم . ذلك الأمر المستقبح فى مدن العمل والرسميات . يتبادلون المجاملات الرقيقة كأنهم متعارفون متوادون منذ زمن بعيد

ولم يحاول أهل تلك البلاد زخرفة الطبيعة . بل تركوها كما هى بزركشتها الالهية . وإن كان هناك ثمة مجهود يبذله الانسان فهو فى الاستمتاع بسحر الطبيعة ليس إلا ؛ فيتسلق الجبال أو ينزلق على الثلج ، . . الخ . وزا كوبانا فى كل هذا كالجمهورية الفاضلة التى أسسها أفلاطون فى خياله الواسع ! . تكفى نفسها بنفسها وتعيش بذاتها لذاتها . يكاد يشعر المقيم بها أن تلك المدينة الوديعة هى كل ما يستطيع أن يتصور من الدنيا

وفيها السهرات الصاخبة التى تصل الليل بالنهار ، وتجعل السهران يستطيع أن يقول فى شىء من الزهو — إن كان هناك ثمة مجال لزهو — « بدأت سهرتى تحت ضوء القمر وختمتها تحت ضوء الشمس ! »

وإن أنس لا أنس تلك الليلة البارعة التى أمضيناها فى كازينو وتشاسكا Chaska حيث سعدنا ساعتين أو يزيد بمشاهدة الرقصات القومية التقليدية التى يؤديها الوطنيون فى ثوبهم الوطنى الموشى بالقصب والحرير ذى الألوان الفاقعة . يؤدونها رجالاً ونساء وأطفالاً ! يختلط الحابل فيهم بالنابل . يأخذ الرجل يد أية امرأة يقع عليها بصره ! ويمسك الطفل الغرير — مازحا — بذقن الشيخ العجوز المائل على حافة القبر ! ويحتضن الشاب الغريب الفتاة المكتملة ذات الصدر الناضج ! فيدورون جميعاً فى حلبة الرقص ، يتجاذبون ويصفقون ويلفون لفات سريعة بارعة على كعوب أحذيتهم أو أطراف أصابعهم ! ضاحكين متراقصين

* * *

وصعدنا مرات جبال تاترى « Tatry » راجلين أو ممتطين « القطار المعلق » الى حيث ارتفع بنا نحو ألفين وخمسمائة متر فوق سطح البحر ! نوع غريب من المواصلات لا يوجد الا حيث تتناهى الجبال الى مثل هذا الارتفاع الشاهق كسويسرا . وهو عبارة عن صندوق ذى أركان من الصلب وجدران من الزنك ، معلق فى أسلاك قوية شدت الى أعمدة متينة رفعت فوق ذرى الجبال السامقة . وفى كل ذروة محطة كبيرة ، ومكتبة وبوفيه صغيران

وزا كوبانا ككل قرية أوربية بها دار للسينما وأخرى للتمثيل ونادٍ للرياضة . وتتوفر فيها كل أسباب الحياة من حوانيت ومقاه ومستشفيات وفنادق . . . الخ

وتنتشر هناك على الأخص الصناعات الخشبية الرفيعة كالتماثيل وأدوات المكتب والزينة والعصى لوفرة الخشب المجلوب من الغابات الكثيفة

هذه هى زا كوبانا التى تفتح ذراعيها لكل قادم . وتتألم لكل راحل بعد اذ يكون قد أنشأ بينه وبين المقيمين بها علاقات ود وصداقة ! المدينة التى تأوى كل هارب من مضنيات الحياة ، كل ناشد راحة ومتعة وسعادة وجمالاً !

وأخيراً ! المدينة التى قضينا فى رحابها ستة أيام بين جمال لا ينتهى وسحر لا يوصف . والتى غادرناها محملين منها فى جعابنا بمقادير غير محصورة من الأحلام والشعر !

ولعل كثيرا منا دخل اليها وقد أقفلت دونه أبواب الشعر والنثر ، وخرج منها شاعراً مجيداً وأديباً فريداً ! ! . . .

محمد عبد الرحيم عنبر
بكلية الحقوق — الجامعة المصرية

القصص

راعيـــة الغنم

للآنسة جميلة العلايلي

هناك فى أعماق الصحراء النائية اتخذت راعية الغنم مأواها ؛ وعند شط البحر الزاخر بأمواج الأزل استقر بها المقام ، حيث تختلط أضواء السماء بظلال الأجواء ، ويبدو الفضاء كأنه مرآة لصورة اللانهاية

فى هذه الدنيا المجهولة اتخذت الراعية سكنها أو معبدها كما نظن وهى لا تدرى كيف استطاعت أن تعبر محيط الحياة المحدود لتعيش فى كنف الوحشة الهائلة التى لاحد لها ، وكيف تمكنت من تحطيم التقاليد المرعية لتقيم لنفسها حياة لا وزن لها ولا قيمة فى نظر المجتمع الانسانى

كذلك لا تدرى كيف تمكنت من مغالبة رغبات الشباب وأهواء الصبا ونزعت راضية إلى حياة التقشف والحرمان

وتحار أيضاً فى تفهم حياتها بقدر حيرتها من خضوعها لقوة قاهرة مجهولة ساقتها دون وعى منها إلى هذه الحياة الجرداء

وهى تذكر ماضيها القريب بما يحمله من نعم الحياة ومباهج الترف والملذات وأطايب الوجود كأنه حلم مر بها لحظات من الزمن الحالم ، ولكنها لا تذكره بحنين ولا تتوق إليه ولا تتمناه ، وهى تتأمل نفسها فى حاضرها فيحلو لها أن تشعر بقدرتها التى حملتها — وهى لم تتعد بعد العشرين من عمرها — إلى اجتياز عقبات الحياة ، وقد عبرت محيط الوجود فى غير خوف ، وحطمت تقاليد المجتمع الغاشمة فى غير لين . . .

إنها تضحية هائلة منها بلا ريب ، إذ كيف يمكن لانسانة رقيقة ناعمة شديدة الحساسية أن تعيش فى دنيا موحشة مليئة بالمخاوف والأوهام ! إنها تشعر بذلك ، ولكنها تعرف أيضاً أن الوحشة الهائلة والخوف المروع والسكون الرهيب أهون من أباطيل المدنية وتهاويل الجوع ومساوئ البشر ، وأقل خطراً من محن التقاليد وتعسف البيئة الحاكمة ! ! !

لذلك ارتضت حياة الحرمان قانعة ؛ ومع أن ليل الصحراء المروع كان يملأ جوانب نفسها رهبة ، فانها كانت تقتل الخوف بأحلامها السانحة . . .

كانت تتخيل دائماً أن الله معها ، وأن ذلك الشروق البهيج كلمة الأمن تنطق بها شفتا الأزل ، وأن مظهر الغروب كلمة العزاء ترسم على صفحة السماء لتوحى إليها أحلام الأمن والطمأنينة والصفاء ! ! !

كانت تشعر أن قلبها عامر بالحب إلى درجة يسع معها ذلك الخلاء المطلق لو ضمت الخلاء بين جانحتيها ؛ وعند ما تواتيها أخيلة المساء تتأمل الكون فى خشوع فيرتد اليها الأمن وتعاودها الطمأنينة ، ويبعث الله إليها ملائكة الرحمة فتنام نوماً هادئاً لا تشوبه مرارة القلق ولا الفزع حتى يقبل الصبح فاها بمنقار طير جميل فتستيقظ وهى على يقين أن ذلك الطير بعثه الله ليحمل إليها رسالة رضاء

على أن حياتها كانت لا تخلو من العمل الجدى فى نهارها . كانت ترعى أغنامها وتغزل أصوافها وتستخرج الزبد والجبن من ألبانها ولا تنتفع بذلك لنفسها بل كانت تهبه راضية أبناء السبيل وهم فى ناظريها اليتامى والمساكين والمحرومون

هؤلاء هم الذين يعرفون الله ويحبونه حباً جماً ، ومع ذلك يحرمهم الحياة من نعمه وهى واحدة منهم — كما تعتقد — ولكنها الآن تملك ما لا يملكون فلم لا تمنحهم مما وهبها الله الجليل العظيم ؟

إنها تشعر أنه وهبها ذلك من أجلهم وعليها أن ترد الأمانة لهم ، ولعل هذا الاحساس الذى ولد معها وظل ينمو ويترعرع حتى اشتد أزره وملك عليها قلبها وعقلها هو الذى دفعها إلى ترك

حياة القصور والفرار من بيئتها سراً لتعيش هنا فى كنف هاته الوحشة أليفة وحيدة . بنت عشها من الأغصان وزينته بالزهر ، وراحت تقتات النبت وتروى عطشها من ماء النهر ، وباتت تحس أن كل ما يحيط بها حانٍ عليها ، وتحس بنسمات العطف ترف عليها من كل جانب ، فتشعر أن قلبها بحبه الهائل أسمى من الوجود ، أو لعله صورة لذلك الذى يسمونه الخلود . ويخيل إليها أنها تملك الحياة بأسرها لأنها تتنفس فى طلاقة ، وتعدو فى غير قيد ، وتخلع أرديتها دون أن تخشى النظرات الفاسقة ، وتسير كما يحلو لها فلا يلاحقها أصحاب القلوب المريضة

* * *

مرت بها الأيام وهى لا تعرف لأيامها حساباً ، بل تشعر أنها كما ولدتها أمها خالية الذهن إلا من الايمان الأكيد حتى بلغ بها الخيال يوماً فحسبت أنها تعيش فى الفردوس الذى وعد الله به المخلصين من عباده ، حتى رأت يوما إنسياً يروح ويجىء من بعيد فأيقنت أنها ما زالت على أرض الحياة تعيش

وتعلق نظرها بذلك الشبح الذى تراءى لها وهو يتمشى فى سكون ، وينقل خطاه فى هوادة ، وفى يده كتاب لا يقرأ منه إلا لماما ليتأمل مظاهر الطبيعة الفاتنة البادية فى الصحراء ؛ وظل كذلك حتى لمح عن بعد طيف الراعية الحانية على الغنم تطعمها وتسقيها ، فتقدم نحوها عامداً ، وراح يتأملها فى عجب وهو يتوجس خيفة من وحشة المكان الذى يأويها ؛ وقد عجب لجرأتها ، وظن أنها لابد أن تكون همجية مستأنسة أو أنسية متوحشة — ولكن مظهرها الملائكى طبع فى ذهنه فاكتسح أمامه هذه الخواطر وراح يرثى لحالها ويفكر فى أمرها ، ووجد نفسه يتقدم اليها من حيث لا يدرى فتوقف عن السير وأسرع الخطى بعيدا عنها

فلشد ما كان يؤلمه أن يخاطب امرأة مجهولة ، وكذلك يخجله أن يواجه امرأة . ولما ابتعد عنها وشعر بطول المسافة بينهما — ندم على تسرعه وقال لنفسه : وما ضرنى لو حادثتها ؟ ألا يحتمل أن تكون هى صحيفة مجلوة من ذلك الكتاب الغامض الذى يحتاج لقاموس ؟ ثم ارتد اليه اعتدال رجولته فاطمأن الى تصرفه

أما هى فقد راحت تتأمله فى حذر وتعجب بدورها ! فلأول مرة فى تاريخ وجودها فى الصحراء ترى إنسيا ، وقد كانت سعيدة بوحدتها ، فأى قدر قذف اليها اليوم بذلك الرجل المجهول . فلكها خوف ورعب ، وسادها قلق واضطراب ، وراحت تنظر للخلاء كأنه مفازة مخيفة تكاد تبتلعها ، ثم تنزل عليها خاطر غريب فهدأت أعصابها فاطمأن قلبها وقالت لنفسها : عله عابر سبيل !! ثم استعادت بخيالها صورته ، فأدركت أنه شاب وسيم الطلعة عليه مهابة الشباب الثرى ، وتأمله فى كتابه يدل على أنه من طلاب العلم أو المتأدبين ، من عسى أن يكون ؟

عله يملك هذه البقاع فجاء اليوم يزورها — ولكن لو كان لسألنى بأى حق اتخذت هذه البقعة ؟ ثم إنى لا أعرف إنسانا متمدينا يبلغ به جنون الزهد أو التقشف الى حد يدفع به الى شراء أرض قاحلة لا فائدة منها . والناس كلهم يجرون وراء الفائدة المادية

بهذه الخواطر شغلت نفسها طوال الليل حتى طلع الصباح فمر بها وقد تأملها فى سكون ، بينما هى تتأمله فى خفر ، وراح يمر عليها كل يوم ملقياً عليها نظرة عابرة وهى تتعمد أن تبدو غير آبهة ولا حافلة ، حتى اشتد ظمؤه يوماً ، فاقترب منها وعليه طابع الصلف والكبرياء وطلب كوب ماء ، فقدمت له إناء به ماء وهى تبتسم وتقول : يؤسفنى أن الماء غير مكرر . . . فذق مياه الزاهدين (قالت ذلك بلهجة لا تخلو من عطف خفىّ ، ولطف ساذج ، وعذوبة محببة ، وتحفظ رزين ، فتأفف وأبى فى صمت قالت : إذن تفضل كوبة من اللبن ؟

فهز رأسه موافقاً وشرب ثم مد يده يبعض دريهمات اليها فامتنعت فى إباء وقالت : المال لطلاب الحياة ولست منهم ! فشكرها فى إيجاز وكبرياء ، وتركها فى موقفها وسار فى طريقه فى هدوء وراحت تترقب مروره وقد هيأت له كوب اللبن فى كل صباح فلم يحضر ، ومرت الأيام وقد ازدادت لهفتها

لم ترغب فيه كرجل يحادثها أو يجالسها ، ولكنها كانت تود أن تراه ثم تغمض عينيها الى الأبد ، ولم تستطع تفسير شعورها الغامض الذى ملكها . لقد باتت تحلم به فى الليل وتترقبه فى النهار ، وجاءها على غير موعد يطلب لبناً . . . ولما شرب ظل

فى موقفه لا يتحرك ولا يتكلم وهى فى موقفها توارى اضطرابها بالاشتغال فى غزلهـا وأخيراً قال بلهجة التهكم المر : ما الذى جاء بك الى هذه البقاع الجرداء وأنت صبية حسناء ؟

قالت برأسهـا إلى الخلف وقد بانت أشد فتنة وسحراً ثم قالت فى هدوء ودعة :

ما الذى تجنيه من حياة المدنية وضجيجها ! ما الذى تجنيـه من أوهام الحياة ؟

لا شىء بالتأكيد !! ...

إذن خير لنا أن نفكر على قدر عقولنا فى حياة تكفل لنا بقدر المستطاع الأمن والسلام

فضحك الشاب متهكما وقال : وإذا كان جميع الناس على هذا الطراز (طرازك التقشفى) فما الذى تجنيه الانسانية أيضاً ؟

قالت : على الأقل تخلو من التنابذ والتنافر فترتدع الخلائق عن الحرب والتقاتل

فازداد تهكما وقال :

وهل تظنين أن امتناعك عن مشاطرة الناس حياتهم العامة يشوه من جلال الحياة ؟

قالت : لا ، ولكن يطمئننى أنا ويسعدنى

قال : إذن فأنت تلبسين مسوح الراهبة إمعاناً فى الأنانية ؟

قالت : وهل يمكن لانسان أن يتحرر من الأنانية ؟ . . .

ولكن يمكن تحديد الأنانيـة وتوجيهها إلى طريق مستقيم ، فهناك فارق كبير بين إنسان يقتـل إنساناً ليسعد نفسه ، وبين آخر يعرف كيف يمتع نفسه فى حدود الخير والفضيلة دون أن يلجأ إلى الشر أو الرذيلة

فهز رأسـه وهو يتمتم ويقول : هيه ؟؟ ... وأخيراً قالت : سأعيش هنا حتى نهاية أيامى ، فقال : ألا تشعرين بوحشة الوحدة ؟

قالت : قلبى عامر

قال : عن ؟

قالت بنغمة حارة : بالحب !

فعاد إلى تهكمه ضاحكا وقال : وأين ذلك الحبيب ؟

قالت : إنه معى

قال : ولكنى لم أره ، قد جئت هنا كثيرا

قالت : يخيل إلىّ أنك تتغابى لتستدرجنى

فتلفت الشاب يمنـة ويسرة كأنه يفتش عن ذلك الحبيب ، ولكنها لم تدعه فى حيرته وقالت : أيمكنك أن ترى الله ؟ من أجل الله جئت هنا ، ومن أجله أعيش ، ومن أجله أحب العالم كله !

قال : قد يكون ذلك صحيحاً ، ولكن لا بد لك من تحـديد هذا الحب وتركيزه

فلم تفهم ما يعنيه وقالت : إننى أحب كل كائن لأننى أرى فيه سمة من سمات العظمة الالـهية ، فأنا أحب الكائنات كلها لأنها تكون فى مجموعها القوة الجليلة الهائلة والجمال اللامحدود ، أعنى أحب صورة الله منوعة الرسوم

كانت تتحدث وكل خالجة فيها تعبر بوضوح عن صدق إيمانها ، وكان فى التماع عينيها واختلاج شفتيها معنى صريح لمواطفها الصادقة

فغمغم الشاب بلهجة المريب : لقد دفعك الحرمان إلى ذلك

فتندت عيناها وتمتمت بصوت خفيض : أجل . هو الحرمان الذى قربنى إلى الله ، وهو الذى فتح قلبى للحب السامى ، وهو الذى أودع فى قلبى عاطفة هائلة هى على قدر غموضها عميقة عميقة

وأحس الشاب أن كلماتهـا تنزلت على قلبه فتمنى لو يعانق جسمها اللدن ليبثها الحرارة التى فى كيانه ، ولكن بقية من كبريائه دفعته للصمت ، وكان شعورها قد فاض بها فازداد اضطرابها

ولمـا أحس بحنينه يشتد خاف أن يفتضح أمره فانسحب وقد حياها على عجل وانصرف

***

ومرت بها الأيام وهى تتجنبـه بقدر ما تتمناه ، فقـد أدركت من المرات التى لقيته فيها أن فى التماع عينيه حكاية ، وعلى شفتيه طابع الرغبة الجامحة ؛ ولعله ظن ذلك التجنب زهداً فاحترم مشيئتها وراح يمر بها هادئاً ويعرض عنها صامتاً

وقد فسرت هى تصرفه بالخشونة والجمود فاكتفت أن تنظر اليه من بعيد عند ما يجىء ويجلس هناك على صخرة وسط الرمال كأنه يحدثها بسرائر نفسه ليرفه عن صدره عبء خواطره الثقيل

وفى أمسية قمرية ساجية أحست بشعور قوى جارف يدفعها اليه . . . لتراه ثم تعود ، ولمـا جاءته وكان قد أخذ مجلسه على الصخرة ، نظر اليها نظرة خاطفة ، ثم أشار اليها بيسده لتجلس

فامتنعت واتجهت خلفه لتعود ، فانتصب فى هدوء وقال لها فى رفق : إجلسي يا طيف الهارب ... فامتنعت ...

فعاد يقول بصوت حزين : أنا مريض

فتمتمت : لا أظن

قال : صدقيني

قالت : لست مريضاً ... ولكنك حالم — أجل — إن ما بك هو حلم عميق وهو الذى أورثك هذا الجمود

فارتاع ثم قال : أجامد أنا ؟

قالت : أو تشك ؟

قال : أجل

قالت : ثق

قال : لا أظنه جمود عاطفة ولكنه رهبة وخوف

قالت : ممن تخاف ؟

قال : منك ! ! !

قالت : أيمكن أن يخاف الرجل القوى امرأة ضعيفة ؟

قال : آه من المرأة : فى عينيها بريق الأمل وعلى شفتيها طابع الألم ، ومن هذا الالتباع تتدفق القسوة فى شبه زلال الرحمة

قالت : إن الله يحيط المرأة بسياج الغموض وهو ما يخيف الرجل ، وما يسميه بالقسوة ليجعل لها حصانة طبيعية وسلاحا لا يؤذى . فتكلف ابتسامة شاحبة وقال : وبرغم ذلك فألف أف من سلاح عينيك

فضحكت فى سذاجة وقالت : فى عينيك حكاية وفى عينى سلاح — هه — يا للفارق الهائل !

فتفكر وقال :

فى عينى حكاية ! ! عجبا ! !

أتعرف الراعية التهكن ؟

قالت : أجل

قال : إذن نبئينى يا كاهنتى ؟

فلزمت الصمت طويلاً وهى تحدق فى عينيه ثم قالت : فى عينيك حكاية حلمك ! !

قال : يا لله ، وهل لحلمى حكاية ؟

وإذا كان هذا رأيك عن عينى فما عساى أقوله فى عينيك

فقالت : بدون اكتراث :

قل ما بدالك

فنظر إليها طويلاً ثم أرخى جفونه وراح يعبث بعصاه فى الرمل كأنه يصور خواطره بها ثم نظر إليها وقل :

فى عينيك عمق الأبد وسر الأزل

قالت : ثم

قال : لا شئ

قالت : فسر ما وراءهما

قال : عسير على إدراك ما وراء الأبد وتفهم خفايا الأزل

قال ذلك وهو يتأهب للانصراف فتشبثت بردائه وقد نسيت حذرها وخوفها وقالت : ابق بجانبى ، ابق بجانبى ، لا تتركنى هكذا وشيكا

فتعمد عدم الاهتمام وحاول أن يخلص نفسه من بين يديها . ولما رفع وجهه إلى عينيها ولمح دموعها تخاذل وأخفق وأطرق برأسه فى استسلام وقد تجهم وجهه ولزم الصمت . وأخيراً غمغم بصوت خفيض : أغنى ، فقبضت على يده وهى تقول : افتح عينيك ! ! ودعنى أتأمل فيهما طويلا

دعنى أتأمل فيهما حتى نهاية الوقت بل دعنى أتأمل فيهما حكاية قلبى ! ! وهنا تلاشى كبرياؤه وبدأت عواطفه تشيع فى عينيه وتتراءى كالظلال على شفتيه بسمة السخرية حتى امتدت الى قهقهة طويلة فاستفاق فوجدها بين يديه جثة هامدة

فنضحها بالماء حتى استفاقت ففتحت عينيها فى بطء وغمغمت : أما زلت هنا أيها القدر الجائر . ثم ابتسمت وقالت أترانا انتهينا ؟

قال : أى قوة هائلة قد قذفتك من أعماق الحياة لتأخذى مكانك فى قلبى ؟ فانتصبت وقد ملكها الفرح وقالت : إذن أنت لى وسوف تظل بجانبى إلى الأبد

وأحس فى أعماقه بسخرية القدر فتألم لها وعليها ، إذ أدرك خطورة تصرفه وأيقن أنه عاجز عن مكافأتها على حبها — انه مرغم على فراقها ، فللتقاليد حرمة يجب أن تصان ، ولبيئته تقاليد مرعية يجب أن تحترم ، ولوالده عليه حق الطاعة والخضوع — فتلطف بها وقال : قد أكون تطفلت عليك فمعذرة ، سأذكرك دائماً بالخير ، وإذا احتجت إلى معونة فأنا أقرب الناس إليك

فتألمت واحتجت فى عنف وحاولت أن تحتم عليه البقاء بجانبها لخانها النطق وقعد بها الحياء

ولم يترك لها مجالاً لاستعادة قواها . فحرك ساقيه ومضى عنها مهرولاً وتركها فى مكانها تتمتم :

أيمكن أن تقذفنى الحياة من أعماقها إلى شاطىء فيصدمنى القدر بصخرة الفناء

* * *

ومرت الأيام سراعا وهى تترقبه كل يوم وتسقط ورقة أحلامها من على شجرة أمانيها ذابلة صفراء وحاولت أن تبحث عنه هنا وهناك فلم تعثر على آثار خطاه

لقد مل الصحراء كما ملتها ، أو لعله تعمد تجنبها رحمة بها وخوفا عليها فأنه كان على يقين من أنه أعجز من أن يحارب أوضاع المجتمع الصارمة ، وأضعف من أن يحطم التقاليد الغاشمة

ورأته فى منامها على سفر يشير إليها بيـده من نافذة القطار فقامت مبكرة وقطعت الوهاد والنجاد حتى بلغت محطة أول قرية تقرب من الصحراء لتتعزى برؤية المسافرين ، ومرت القطر تباعا وهى تتأمل الوجوه الغادية والرائحة ؛ (وأخيراً) لمحته من النافذة يرقبها فى حذر ويشير إليها بيده من نافذة القطار ، وسمعت بجانبها صوت رجل يقولون له (العمدة) يصيح : مع السلامة ! لا تتأخر فى الميعاد المحدد ! وقال له صاحبه لماذا ؟

فأجابه : يوم زفافه !

جميل العلايلى

البريد الأدبي

نظريات جديدة في الفن والنقد

اطلعنا فى البريد الأخير على تفاصيل القرار الذى صدر فى ألمانيا بتحريم النقد الأدبى والفنى ، والبواعث التى أملت باصداره ؛ ويقضى القرار الجديد بتحريم نقد المؤلفات الأدبية والفنية والموسيقية والمسرحية ، ويشمل أيضاً المسرح والسينما والحفلات الموسيقية كما يشمل أشخاص المؤلفين والفنانين جميعاً ، ولا يباح بمقتضى القرار الجديد سوى عرض الموضوعات ووصفها دون التعليق أو إبداء الرأى . وقد صدر من قبل قرار يقضى على الكتاب بأن يعنوا عند نقد المؤلفات الفنية بالتنويه بالمزايا السياسية والثقافية والجنسية للاشتراكية الوطنية

ويرجع هذا التحريم إلى رأى الوطنية الاشتراكية (أو الهتلرية) فى الفن وهو أن الفن يجب أن يستمد إلهامه من المثل والخواص القومية ، وأنه لا يوجد من أجل قيمته الذاتية فقط ، ولكنه يوجد لخدمة مصالح الدولة والأمة

وقد بسط الدكتور جبلز وزير الدعاية الألمانية فى بيانه الرسمى بواعث هذه الخطوة الحديثة ، فذكر أن مهمة الفنان هى أن يحمل الى الأمة « القوة مع السرور » ، وأن النقد الفنى لا يزال فى ألمانيا يحمل طابع « الحرية اليهودية » على رغم جميع الجهود التى بذلت لمحو هذا الطابع ؛ وإن أولئك الفتية الذين يزعمون اليوم أنهم أقطاب المعرفة والنقد يسيئون دون قصد إلى حياتنا الفنية والثقافية ؛ وهم بلا ريب ورثة الارستقراطية اليهودية الناقدة دون أن يشعروا . ثم قال إن ذلك لا يعنى اخماد حرية النقد ، ولكن القصد أن يقتصر النقد على أولئك الذين تؤهلهم معارفهم ومقدرتهم للحكم على أعمال الآخرين . وإنه ليس من الانصاف أن يتصدى فتية أحداث فى العشرين أو الثانية والعشرين لنقد أعمال رجال من أقطاب الفن قضوا أعمارهم فى تفهمه وإتقانه وأحرزوا شهرة عالمية فيه ، وإنه يجب أن يبدأ أولئك الفتية بالتمرن على الوصف والعرض ، وإن باب النقد مفتوح للقادرين ، ولكنهم لا يوجدون الآن ، وإنه لا يريد أن يسقط الفنانون صرعى النقد الحر . هذا ولن يفقد الفن شيئاً إذا بعد أولئك النقدة الأغرار من الميدان ، فالعظمة الزائفة تسقط فى ظرف عام حتى ولو لم يقتلها النقد . أما ذوو العظمة الحقيقية فيجب أن يسمح لهم بحرية الابتكار والاحتفاظ بكرامتهم الفنية ، ويجب أن تصان العبقرية الحقيقية من كل ما يؤذيها ويمهد لسقوطها

هذه هى نظريات العهد الألمانى الجديد فى الفن وفى النقد ؛ ومهما كانت فى ظاهرها تحمل طابع الطرافة ، فلا ريب أنها أخطر ما يكون على الفن وعلى العبقرية الفنية ، فالفن الحقيقى لا يزدهر فى ظل العبودية الفكرية ، ولا تنظمه القوانين العسكرية ، والعبقرية الفنية أو الفكرية ، لا تزدهر إلا فى جو النقد الحر ، والنقد وحده هو الذى يبرزها ويذكيها ويصقلها

كتاب عن علائق العرش والأمة

لعل فى الأزمة الدستورية التى تجتازها انكلترا الآن وفى الخلاف الذى قام بين العرش والحكومة ما يجعل لمثل هذا الكتاب أهمية خاصة ؛ فقد صدر أخيراً بالانكليزية كتاب للدكتور بريديل كايت B. Keith عنوانه « الملك والتاج الامبراطورى . ما لجلالته من حقوق وما عليها من واجبات» The Kiug and The Imperia Crown Iete ، ويتناول المؤرخ بالشرح كل الواجبات والأعمال التى يضطلع بها العرش فى مختلف الشؤون العامة ، ثم مركز الملك وعلائقه بالنسبة للامبراطورية وماله من حقوق وما عليه من واجبات فى الحالتين ؛ ثم مدى تأثير العرش فى مختلف الدوائر الحكومية ، ويتناول المؤلف خلال بحثه كثيراً من الشخصيات السياسية الكبيرة ، ويبين ماذا كان موقفها من العرش ؛ ويخص السياسى الكبير جلادستون بمديحه وتقديره ، فى حين أنه يحمل على دزرائيلى وعلى أسلوبه . ومع أن الكتاب يدور فى معظمه على علاقة العرش بالحكومة والأمة ، ومدى ما يقوم به فى سبيل الخدمة العامة ، فان أهم فصل فى الكتاب

هو الفصل الذي يتناول علاقة العرش بالامبراطورية ، لأن هذا البحث جديد « ولأن المسألة التي يتناولها جديدة في تاريخ الامبراطورية البريطانية »

وقد أسبغت الأزمة الانكليزية الأخيرة على هذا البحث أهمية خاصة

ذكرى موسيقي كبير

يحتفل في العام القادم في مدينة ليبسك بألمانيا بذكرى الموسيقي الكبير بكستهودي أعظم أساتذة « باخ » عميد الموسيقى الألمانية ، وذلك لمناسبة مرور ثلثمائة عام على مولده ؛ وستقام بهذه المناسبة حفلات موسيقية يعزف فيها بآلات الكنيسة القديمة التي كان يعزف عليها في عصر بكستهودي ، ويقام قداس موسيقي ، وينظم متحف يضم مخطوطات الموسيقي الكبير ورسائله والكتب التي ألفت فيه

وقد كان بكستهودي من أهل ليبسك وقضى معظم حياته فيها ولبث أعواماً طويلة رئيس الفرقة الكنسية في كنيسة سان ماري ؛ وما زالت بهذه الكنيسة المنابر التي أمر بكستهودي بانشائها ليلقي منها مقطوعاته الشهيرة ؛ وهنالك أيضاً معزف صغير كان يعزف عليه ، وعدة آلات موسيقية أخرى كان يستعملها لتوقيع الموسيقى المقدسة ؛ ويوجد بمكتبة ليبسك كثير من القطع الموسيقية التي وضعها ، وكثير من الوثائق التي تتعلق بحياته وعلائقه مع تلميذه باخ

معهد من نوع جديد

افتتحت جامعة لايبزج أخيراً معهداً تاريخياً من نوع جديد يختص لدراسة المسائل المتعلقة بشعوب جنوبي شرق أوربا ؛ وسيقوم بالتدريس فيه جماعة من الاخصائيين من يوجوسلافيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا واليونان وبلغاريا والمجر وتركيا ؛ وقد انتدب لادارة المعهد الجديد الأستاذ الدكتور « منستر » ، وهو من أعظم المتخصصين في هذا الباب

كتاب عن العراق الحديث

صدر أخيراً بالانكليزية كتاب عن العراق عنوانه « تكوين العراق الحديث » The Making of Modern Iraq بقلم كاتب أمريكي هو مستر هوارد فوستر H. Foster والكتاب بحث نقدي مدعم بكثير من الوثائق ، كتب بأسلوب هادئ ؛ بيد أنه يكتفي من الوثائق بالمطبوع منها ، ولا يدعي بأنه اطلع أو أحاط بأية وثيقة غير معروفة . ويستعرض المؤلف تاريخ العراق الحديث حتى سنة ١٩٣٤ ؛ إلا أنه يغضي عن ذكر بعض الحوادث المعروفة كثورة الآشوريين وإخمادها في سنة ١٩٣٣ ، وعقد اتفاق أنابيب النفط في سنة ١٩٣٤ ، مع أنه يتحدث عن موضوعات أخرى لا تتعلق مباشرة بتاريخ العراق مثل الحرب بين ابن السعود والامام يحيى . وينوه المؤلف بجهود الرئيس ولسون في وضع مبدأ تقرير الشعوب لمصيرها ، ويرى أنه لولا جهاده في سبيل هذه المثل العليا لكانت العراق وغيرها قد راحت ضحية الاستعمار الجشع . وهذا رأي لا يوافقه عليه الكثيرون

آثار فرعونية في المتحف البريطاني

تعرض لأول مرة في المتحف البريطاني مجموعة من التماثيل الفرعونية نادرة المثال . وهي ملك للمسيو كالوستي جلبنكيان من كبار رجال المال والزيت الدوليين ، وقد أعارها للمتحف من مجموعته الخصوصية المشهورة بباريس

وهناك أربع عشرة قطعة بينها رأس تمثال يرجح أنه للملك أمينمحت الثالث من ملوك الأسرة الثانية عشرة . وهو مصنوع من « الابسديان » أو الزجاج الطبيعي ، وكان يستعمل قبل المعادن في صناعة الأسلحة مثل رؤوس الحراب والرماح . وكذلك يوجد تمثال لقطة بحجمها الطبيعي ومعها قطتان صغيرتان . وربما كان التمثال الفريد بينها رأس امرأة يرجع عهده إلى ٣٥٠٠ سنة خلت ، وهو مؤلف من جزءين : غطاء الرأس وهو من الفخار المدهون بطلاء أزرق ، ثم الوجه وهو من مادة زجاجية

النقد

سلسلة الموسوعات العربية

معجم الأدباء

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

سمعت بعد عودتى من العراق الصيف الماضى أن الأديب الهمام الدكتور احمد فريد الرفاعى تطوع لنشر طائفة من أمهات كتبنا ، وأن وزارة المعارف وازرته فيما تطوع له فضمنت له تصحيح الكتب ، وأن تشترى من كل كتاب ألف نسخة . وتلك همة مشكورة من الدكتور ، وسنّة محمودة من الوزارة

وقد عرفت من قبل فى معجم الأدباء ، كما طبعه الأستاذ مرجليوت ، نقصاً وسقطاً وتحريفاً ، فرجوت أن تكون الطبعة الجديدة سادّة ما فى الكتاب من خلل ، ولبثت أنتظر أن يتحقق رجائى حين ينشر القسم الأول من الكتاب . فلما طلعت الجرائد بالبشرى بادرت إلى قراءة الاجزاء التى نشرت ؛ ولكنى ألفيت غير ما رجوت ، وتوالت علىّ أثناء القراءة خيبة ظن بعد خيبة حتى فرغت من القسم الأول موقناً أن نشر الكتاب على هذه الشاكلة أمر لا يفى ربحه بخسارته ، ولا يقوم سروره بندامته ؛ وأنه يجب وقف الطبع إلى أن تؤخذ الأهبة الكافلة تصحيح الكتاب وإتقان طبعه . فليس يليق بالكتاب المظيم ، ولا بالناشر الفاضل ولا بوزارة المعارف هذا التحريف والمسخ والشرح السخيف

— ٢ —

وسأعرض على القارئ كيف توسمتُ الخيبة ثم ترادفت شواهدها ، وتوالت أمثلتها :

نظرت إلى صفحة العنوان فرأيت أسطراً لم آلفها ، ثم رأيت اسم الكتاب والمؤلف على هذا الترتيب : « معجم البلدان » وتحته : « فى عشرين جزءاً » وتحت هذا : « لياقوت » . فبدا لى أن وضع اسم الكتاب والمؤلف على هذا الشكل ليس فاتحة خير . وكان ينبغى أن يقدم اسم المؤلف على عدد الأجزاء ويكمل الاسم بذكر اسم الأب والنسبة ويكتب بخط كبير . ثم المؤلف لم يجزّئ كتابه هذه التجزئة ، فكان ينبغى الاحتفاظ بتجزئته ، وتقسيم كل جزء أقساماً . ومن اللطائف أنى قلت لبعض الأصحاب : لماذا كتب اسم ياقوت مختصراً بحرف صغير ؟ قال انظر . وأرانى نسخة أهداها الناشر إلى بعض الأدباء ، وقد سمى نفسه فيها المؤلف لا الناشر ، ثم قال لا تعجب بعدُ من وضع اسم ياقوت هذا الوضع . قلت : أنعنى أن قلم المطبوعات يفكر فى حذفه ؟

ثم قرأت على صفحة العنوان : « الطبعة الأخيرة » فلم أدر كيف سمى الناشر طبعته الطبعة الأخيرة . أرأيتَ إن طُبع الكتاب طبعة أخرى أتكون طبعتنا هذه الطبعة الأخيرة أيضاً ؟ أيمكن أن يقال إن فى نية وزارة المعارف أن تحرّم على الناس طبع الكتاب من بعد فتبقى طبعتها الطبعة الأخيرة إلى يوم القيامة ؟

رأيت هذا كله فى صفحة العنوان فسألت الله ألاّ يصدق المثل : « الكتاب يقرأ من عنوانه » ، ومضيت أتصفح الكتاب فاذا هو مشكول كله كلمة كلمة وحرفاً حرفاً . وعجيب أنه تحمّل الكلمات هذه الأحمال ، ويؤذى القارئ بهذه الأشكال دون فائدة . إن الشكل فى مثل هذا الكتاب ينبغى أن يُتحرّى به مواضع اللبس ، فلا يشكل ما لا يشتبه على القارئ ، وأما شكل واو العطف و « فى » الجارّة ، والقاف من قال واللام من أداة التعريف فعمل أقل ما يوصف به أنه عبث . خذ مثلاً هذه الجملة من صفحة ١٩٤ : « كان من أبلغ الناس فى الكتابة » فهذه لا تحتاج إلى أن تشكل لقراء معجم الأدباء . فاذا راعينا المبتدئين من طلاب الأدب وضعنا كسرتين تحت الشين والسين .

فأية حاجة إلى شكل الحروف كلها : « كَانَ مِنْ أَبْلَغِ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَابَةِ »

قلت لنفسي : دعي شكل العنوان وشكلات الحروف ولا تقفي عند الأشكال وانظري إلى الموضوع . فقرأت فألفيت تحريفاً في الطبعة الأولى مُتَّبعاً ، وتحريفاً آخر مبتكراً ، وسوء صنيع في بيان مبادئ الكلام ومقاطعه ، والفصل بين ما يقوله ياقوت وما ينقله ، وشرحا في الحاشية لا يعدو في معظمه أن يكون غلطاً أو عبثاً

أعرض على القارئ أمثلة من هذه المآخذ ، وأكتفي في هذا المقال بالتحريفات الواضحة والغلطات البيّنة تاركا التحريف الخفيّ الذي يحتاج الى مراجعة الكتب لبيان صوابه ريثما أفرغ له

ا — تحريفات في حروف الكلمات أو شكلها :

أول ما يلقى القارئ من التحريف الذي كشف عنه الولع بشكل الكلمات اسم مرجَليوث بفتح الجيم وجُب بضمها ، وقد وردت الثانية مرتين ص ٥ و ١٥

ولا أدري ما عذر الناشرين في هذا الضبط . ونحن نسأل صديقنا المستشرق الأستاذ جِب : أجاء اسمه بضم الجيم في لهجة انكليزية أو قحطانية أو عدنانية ؟

أنا أعلم أن شاعر الترك الكبير عبد الحق حامد حينما كتب البيتين اللذين ينشران على غلاف مطبوعات جب ، اضطر الى مدّ الجيم من جب أو الكاف كما كتبها فقال :

نه اولور دى ياشامش اولسه ابدى مستر گيب

ولكني لا أعرف ضرورة تقضي بضم الحرف

ص ١٦ — نَشوار ، والقَفطي . والصواب كسر النون والقاف

ص ٢٠ — كيش وعَمّان . والصواب عُمان . وشتّان ما بين البلدين

ص ٢١ — السلطان محمد بن تَكَش . والصواب تُكُش بضمتين

ص ٢٣ — ثعلبة بن عكاية ، وص ١٠٧ ثعابة بن عكاشة . والصواب عكابة بالباء

ص ٣١ — مرو الشاهِجان ، ونَسَفها . والصواب فتح الهاء وضم النون

ص ٣٥ — لبٌّ عازب ، وحُلم غائب . والصواب كسر الحاء

ص ٣٧ — يعالج لما خَرّبه من هذا الأمر المقيم المقعدِ . وفي الحاشية : خرّبه نزل به . والصواب لما حزبه . يقال حزبه الأمر لا خرّبه الأمر . والمقيم بالفتح مفعول يعالج لا صفة للأمر

ص ٤٠ — أبيات لياقوت « في غلام تركي رمدت عينه وعليها رفائد سود» . وفي الحاشية الرفادة الخرقة توضع على الجرح . وهذا صواب . ولكن جاء في البيت الثاني :

« أرخى على عينيه فضل وقاية » وكان ينبغي أن يُعلم أنها فضل رفادة بعد أن ذكرت الرفادة وشرحت

ص ٦٣ — قول ياقوت : « فاجمل جائزتي دعاء يزكو غرسه عند ذي العرش ، واحمدني في بُسُطه والفرش » والصواب في بَسْطه أي بسط الكتاب

ص ٦٤ — « إذ كلٌّ همّه تحصيل المأكول والمشروب » . والصواب همّه بضم الميم . والمراد هنا الأمم ، لأن الفعل أهمّ لا همّ

ص ٨٠ — ومعاوية بفارسٍ . والصواب بفارسَ ، فانها ممنوعة من الصرف ، وفي الصفحة نفسها : ينمىِ . والصواب ينمىَ بالفتح

ص ٨٢ —

أمغطٍ مني على بصري بالسحب أم أنت أكمل الناس حسناً

وقد شرحه الناشر في الحاشية وقال : « ويروى أمُغَطىً على صيغة المفعول . » والصواب أمغطّى لا يحتمل البيت غيرها ، وكان الواجب تصحيح البيت لا اثبات الغلط وشرحه ، وفي البيت غلط آخر في وضع كلمة السحب بدل الحب . والبيت معروف .

ص ٩٣ — « ولا أبدأُ نفعا ولا أحمدُ أخلاقا ولا أدومُ سرورا » ، وقال في الحاشية : في الأصل أبد نفعا . فقد أصلح غلط الأصل بغلط آخر . والصواب أبدى بالياء .

ص ٩٩ — « ولم تعوّض من ذاك ميسُرة » . والصواب فتح السين .

ص ١٠٨ — « لُغو يا نبهـا ثَبَتا » . وقد شرحها فى الحاشية فقال : والثَبَت بفتح الباء الحجة والرجل الثقة . والصواب ثبْتا . يقال رجل ثبْت لاثبَت ، والثبت بالفتح البرهان اسم لا وصف .

ص ١١٢ — كأنْ ثنى السُّحوص . . الخ والصواب فتح النون .

ص ١١٥ — أَضِقت إضاقة شديدة ، وبعد أسطر : أَضِقت مرّة . والصواب أُضِقت بالبناء للفاعل أى أصابه ضيق .

ص ١٣٣ — فلا أزال أما كسهم ويَزيدونى . والصواب يزيدوننى .

ص ١٨٨ — فنقطت القلم نقطة . وفى الحاشية : الأنسب نقط القلم . أقول : وأنسب من هذا نقطت من القلم نقطة .

ص ١٨٧ — يسائل عن أخى جُرم . . الخ والصواب جَرم وهو اسم قبيلة .

ص ٢٠٨ — ابراهيم بن قُطْن . ونحن نعرف فى الأسماء قَطَنا لا قُطنا .

ص ٢٠٩ — المُصَيصَة اسم بلد . والصواب المَصِّيصة

ص ٢١٣ — أبو علىّ الرَّوْزبارى . والصواب الرُّوذبارى .

ص ٢١٩ — ثنى الصِّبا غصنا قد غازلته صَبا ، والصواب ثنى الصَّبى

ص ٢٣٧ — أحمد الفِرغانى . والصواب فتح الفاء

ص ٢٤٠ — غُمار الناس . والصواب كسر الغين

ص ٢٢١ — :

يخال بأن العِرض غير موفَّر عن الذم إلا أن يدال له الوفر

والصواب يذال بالذال المعجمة من الاذالة أى الامتهان

ص ٢٢٤ — :

ســـقى الله صوب القصر تلك مغانياً

وإن غنيت بالنيـل من سُبُـل القطر

وهذا بيت ممعور بثلاث غلطات . والصواب صوب القطر . و « عن سَبَـل القطر »

ص ٢٣٢ — « وسعد بن مسعود هو أخو عبيد بن مسعود صاحب يوم الجسر . » والصواب أبو عبيد وهو صحابى معروف قاد جيوش المسلمين فى وقعة الجسر وقُتل بها . والعجيب أن فى الـكتاب بعد سطر واحد : وسعد هو عم المختار بن أبى عبيد الثقفى . ولم يتنبه الناشر إلى أن أبا عبيد الثقفى هذا هو أبو عبيد ابن مسعود الذى سمّاه عبيد بن مسعود . ومثل هـذا ما جاء فى ص ٢٣٥ : « محمد بن على الشلمغانى » وبعدها بسطرين : « من أهل قرية من قرى واسط تعرف بشلغمان . ولو لم يكن المصحح نائماً لما سمى الرجل فى سطرين عبيداً وأبا عبيد ، وسمى القرية فى سطرين شلمغان وشلغمان

ص ٢٥٦ — « وكان حسن الحفظ للقرآن . أولَ ما يبتدئ به الخ » . وفى الحاشية : أول مفعول يبتدئ . والصواب أولُ بضم اللام وهى مضافة إلى المصدر المؤول بعدها لا مفعول يبتدئ . وينبغى أن يُعلم أن ما بعد ما المصدرية لا يعمل فيما قبلها

ص ١٨٧ — فى متن الـكتاب : « ثم التى لا يقع حسم الداء بغيرها . » وهو كلام مستقيم ، ولـكن الناشر أخرج هذه الجملة إلى الحاشية . وأثبت فى المتن « التى لا يقع بحسم الداء غيرها . » أجاز لنفسه هنا أن يغيّر المتن وهو صحيح . ولم يجز لنفسه فى مواضع أخرى أن يصحح المتن وهو غلط بيّن فاكتفى باثبات الرواية الصحيحة فى الحاشية

ص ١٩١ — كان فى متن الـكتاب :

كذبت همـة عين طمعت فى أن تراكا

أوَ ما حظٌّ لعين أن ترى من قد رآكا ؟

فغير الناشر « أوَ ما » إلى « أىُّ ما » . والصواب ما كان فى المتن . والغلط ما رآه الناشر . وغلط آخر فى رسم « أيمـا » مفصولة كما رسمها

ص ٢٧٠ :

معاذ الله أن نُلقى غضـابا سوى ذاك المطاع على المطيع

وفى هذا غلطان . والصواب : نُلفى غضابا بالفاء ، فى الشطر الأول و « دَلّ المطاع » بدل « ذاك المطاع » فى الشطر الثانى

هذا ما أخذته وأنا أعبر القسم الأول وهو جزء من عشرين ، ووراء هـذا معضلات من التحريف تحتاج إلى بحث وتنقيب ليتبين صوابها . وسأبين فى المقال الآتى ما فى تعليق الناشرين من غلط وعبث ، يرى فيهما القارئ المبكى المضحك ، وموعدنا العدد الآتى إن شاء الله .

عبد الوهاب عزام

نفح الطيب

فى طبعته الجديدة

بقلم الأستاذ أحمد يوسف نجاتى

شارح الكتاب

اطلعت فى العدد الأخير من مجلة (الرسالة) الغراء على مقال بالعنوان الذى اخترناه لكلمتنا هذه بقلم الأديب محمد فهمى عبد اللطيف ، فأردت بعد قراءته أن أقدم لحضرته هذه الكلمة فى غير ردّ عليه ولا تزييف لقوله . وعسى أن تكون هذه الكلمة البريئة رسالة تعارف وودّ بينى وبين الناقد الكريم تتلاقى به الأشباح كما تلاقت الأرواح ، فطالما قرأت له بمجلة (الرسالة) القيمة مقالات شائقة ممتعة ؛ ولا غرو فى ذلك فالرسالة ميدان تتبارى فيه فرسان البلاغة وجياد البراعة ، وهى المجلة التى يتقبلها الأدباء بقبول حسن ويحلّونها من أنفسهم أكرم محل

افتتح حضرة الناقد المجهد مقاله الكريم بكلمة طيبة أثنى فيها على تلك الهمة المشكورة التى يبذلها حضرة الأستاذ الدكتور أحمد فريد الرفاعى فى إحياء الأدب العربى وبعث تراثه من مراقده ونشر موسوعاته الجامعة ؛ وراقه من كتاب نفح الطيب (وغيره طبع متقن وضبط كامل وتقسيم واضح وتصحيح دقيق تقوم وزارة المعارف بمراجعة أصوله النهائية مبالغة فى إجادته وحرصا على اتقانه) ؛ ونحن نشاركه فى هذا الثناء ونتوجه بالشكر الجزيل لحضرة صاحب المعالى زكى العرابى باشا وزير المعارف الجليل وإلى حضرتى وكيليه الهمامين ، فما منهم إلا نصير للغة وآدابها عامل على ترقيتها ، فجزاهم الله خير الجزاء . وكذلك سرّنا من حضرة الناقد أن نوه بالمحاسن — وإن أجمل القول فى ذلك إجمالاً — فجانب بذلك عادة عرف بها كثير من نقادنا وهى اغضاؤهم عن الحسنات وتشهيرهم بما يرونه هفوات

فليس من الحزم فى شئ أن ينزل الكاتب — لشهوة الكتابة — على حكم النظرة الأولى العجلى فطالما أعجلت الكاتب عن التفكير ، وكان حكمها خاطئا بعيدا عن الحق متنكبا جادة الصواب ؛ وليس من الكياسة الحكيمة أن يسرع بعض الناقدين الى رمى من ينقدون أعمالهم بفساد القول وزلل المنطق ، فقد كان من آثار ذلك أن أحجم كثير من المبرزين فى الآداب أن يجلوا للناس عرائس أفكارهم ، ضناً بأعراضهم أن ترتع فيها الألسنة المضرّاة حتى تركوا الميدان لهؤلاء الذين جعلوا عقولهم وراء ألسنتهم ، يجولون فيها وحدهم ، ونرجو أن يكون للكتاب والناقدين قدوة حسنة فى حضرة ناقدنا الأديب وأسوة صالحة بالكاتبين الكرام فى الرسالة الغراء

١ — قال حضرة الناقد : إن الناشر (وضع اسم الكتاب على الغلاف ناقصاً فسماه : (نفح الطيب) والمؤلف قد سماه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، وهذا الاسم هو الذى وضع على الطبعات السابقة) ونحن أيضاً نرى أنه كان الأولى أن يكتب على الغلاف اسم الكتاب كاملاً محافظة على وضع المؤلف . ولعل العذر فى ذلك اشتهار الكتاب باسم (نفح الطيب) فحسب ، وأن الاسم لو أثبت كاملاً لم يتسع له نطاق الغلاف بهذا الوضع المنسق الذى هو عليه ، وأن القارئ لا يلبث إذا تصفح بضع ورقات من الكتاب أن يرى اسمه التام الذى اختاره له مؤلفه ، والخطب فى هذا يسير وليست ملافاته عسيرة . وكذلك نرى أنه كان من الخير أن يراعى تقسيم المؤلف فيقسم كل جزء من الأجزاء المشرين إلى أقسام ينبه بها إلى التقسيم الأصلى للمؤلف ، ويبين فيها حدود أجزائه الأربعة الأصلية ، وهذا أيضاً شئ يهون أمره ولا يعز تداركه فى الأجزاء الآتية إن شاء الله

٢ — ونقول لحضرة الناقد إن المقدمة التى صدر الجزء الأول بها للتعريف بمؤلف الكتاب ليست للناشر ولا لغيره من الشارح أو المراجعين ، وإنما هى منقولة بنصها من كتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر لابن فضل الدين المحبى ، وقد نبه حضرة الناشر إلى ذلك فى أول ذيل الصفحة الأولى ، وما كان للناشر أن يتصرف فى تلك المقدمة بمحو أو إثبات . فليس من العجب أن ينقل الأستاذ عبارة المحبى كما هى ، وليس هو الذى أثبت اسماً قد ألغاه صاحبه ولكن المحبى صاحب خلاصة الأثر هو الذى أثبته غير مرة فى هذه الترجمة الطويلة التى (جاء فيها بأشياء ذكرها المقرى نفسه فى المقدمة التى كتبها عن سفراته ورحلاته والباعث له على تأليف الكتاب) وإذا عرفنا أن المقدمة كلها من ص ٩ — ٣١ منقولة من خلاصة الأثر فقد ارتفع اللوم عن الناشر وغيره

وليس (لغا) من الشارح ولا (فضولاً) أن ينبه فى أسفل صفحة ٩ إلى أن المؤلف قد غير اسم الكتاب من (عرف الطيب) إلى (نفح الطيب) قبل أن ينبّه المؤلف نفسه إلى ذلك فى صفحة ٢٤٤ حتى لا يتوهم بعض القراء فى أول الكتاب عند صفحة ٩ قبل أن يقطع المسافة إلى صفحة ٢٤٤ أنهما كتابان متغايران

(يتبع) أحمد يوسف نجاتى